



الفصل الثاني
الصفدي الشاعر

أول ما يحتاجه الشاعر الموهبة الفطرية التي تمكنه من تذوق موسيقا الكلمات ، والإحساس المرهف بإيقاع اللغة ، والتمييز الواعي بين الألفاظ في عدوبتها ، وحسن تعبيرها عن المشاعر ، ثم عليه أن ينمى تلك الموهبة بالعلم ، والحفظ ، والرواية ، والنقد ، والصفدى شاعر موهوب ، ظهرت موهبته الشعرية في وقت مبكر ، يدل على ذلك أمور ، منها :

• شعره المروى في مناسبة عودة الملك الناصر الثالثة ، إلى عرشه في سنة ٧٠٩ هـ (١) .

• وكتابه « ساجعات الغصن الرطيب في مرثي نجم الدين الخطيب » ويضم قصائد شعرية ، ومقطعات من الشعر والنثر له ، جمعها في رثاء أستاذه ، بعيد وفاته ، في سنة ٧٢٣ هـ .

• كان شيخ الربوة (ت ٧٢٧ هـ) يعرض عليه قصائده ، ويطلب إليه تنقيحها ؛ فيعيد سبكها ، ويغيّر منها كثيرا (٢) .

• أذن له ابن سيّد الناس (ت ٧٣٤ هـ) في إصلاح ما يعثر عليه من الزلل ، والوهم ، فيما صدر عنه من النثر والنظم (٣) .

ومعنى ذلك أنه أصبح بارعا في صناعة الشعر ، ماهرا في فن النظم وهو في شرح الشباب ، ومبعة الصبا .

تعهد الشاعر موهبته بالصلقل ، والتهذيب ، فأخذ يوسّع مداركه بالاطلاع الواسع ، والدراسة الجادة ، والذهن المتوقّد ، كما كان « من ولوعه بالرسم ، لأوّل نشأته ما أخرج منه خطاطا مبدعا ، وقوى فيه موهبة التصوير في الشعر والنثر ، وجمل أدبه » (٤) وكانت له الرواية الكثيرة ؛ فنحن نعلم أنه كان يروى ديواني أبي تمام ، والمتنبي بالإجازة ، وقرأ دواوين الشعراء :

القاضي الفاضل ، والوداعي ، والتلمساني ، والشاب الظريف ، وابن دانيال ،

(١) انظر : صفحة ١٣ .

(٢) انظر : الوافي بالوفيات ٣ / ١٦٤ .

(٣) أعيان العصر ٥ / ٣١٢ .

(٤) كنوز الأجداد ٣٦٣ .

والجزار ، والسراج الوراق ، والعزازی ، وابن تمیم وأبی حیان ، وابن الوردی ، وغيرهم ، وانتقى من تلك الدواوين مختارات استحسناها ^(١) ، وفي ترجمة أبي تمام يقول إنه انتقى من ديوان الحماسة ١١٢٣ بيت في كتاب سماه « نفائس الحماسة » كما انتقى من الشعر الذي جاء في الموسوعة الضخمة « مسالك الأبصار » ، ويقول الصفدي : إنه امتلك من دواوين الشعر :

دواوين : ابن الخياط ، وابن القيسراني ^(٢) ، والوداعي ^(٣) .

وامتلك مؤلفات ابن سعيد كلها ، وأكثرها تضم اختيارات شعرية ^(٤) .
والموجود بين أيدينا ، اليوم من كتبه تدلّ على هذا الاطلاع الواسع ، ومدى عنايته بشعره ، وشعر غيره ؛ فقد وصل إلينا من كتبه التي تضم شعره : الحسن الصريح في مائة مליح ، وحل ألغاز عن النيل ، وحل لغز منظوم ، وديوان الصفدي ، والروض الباسم والعرف الناسم ، والقصيدا التائية ، والقصيدا الطائية ، والقصيدا اللامية ، وموشح ، وغيرها من القصائد .

والكتب التي تضم أشعارا كثيرة له ، ولغيره هي : التذكرة وتوشيع التوشيح ، وجلوة المذاكرة ، وصرف العين ، وكشف السر المبهم في لزوم ما لا يلزم ، ولذة السمع في صفة الدمع ، وفض الختام عن التورية والاستخدام ، والهول المعجب في القول الموجب ، وفي الوقت نفسه لا يكاد كتاب من كتبه يخلو من قصائد له ، ومقطعات ، يذكرها إذا جاورت ما يناسبها ، أو لها تعلق بالمرجم ، أو استطرادا .
وقبل أن أتحدّث عن أغراض شعره ، وخصائصه الفنية ، أحبّ أن أفتدّ الدعوى التي أثارها ابن حجّة ^(٥) في كتابه « خزانة الأدب » ، وهي دعوى سرقة الصفدي معاني ابن نباتة ، فيما سماه « خبز الشعير » وانقاد له البعض من القدماء ، ومن المعاصرين يرددون قوله ، دون أن يتبيّنوا الحقيقة ، أو يتحرّوا أمانة العلم .

(٢) الوافي بالوفيات ٥ / ١١٣ .

(١) راجع : مؤلفات الصفدي .

(٤) نفسه ٢٢ / ٢٥٣ .

(٣) نفسه ٢٢ / ٢٠١ .

(٥) أبو بكر بن علي بن عبد الله ، تقي الدين (٧٦٧ - ٨٣٧ هـ) شاعر ، ناقد ، أديب ، من

كتاب الإنشاء ، صاحب خزانة الأدب .

انظر : الأعلام ٢ / ٦٧ ، ومعجم المؤلفين ٣ / ٦٧ .

خبز الشعير المأكول المذموم :

خبز الشعير المأكول المذموم نحو أربع صفحات ، سماها ابن حجة « كتابا » ، ونسبه لابن نباتة ، وتغنى ببراءة الاستهلال فيه ، ونقل مقدمته ، وسبب التسمية ، قال (١) : « وأما براءة الشيخ جمال الدين ابن نباتة في خطبة كتابه المسمى بـ « خبز الشعير » فإنها خاص الخاص ، ولا بد من مقدمة تكون هي النتيجة الموجبة لتسمية هذا الكتاب بخبز الشعير ؛ فإنه مأكول مذموم ، ما ذاك إلا لأنه كان يخترع المعنى الذي لم يسبق إليه ، ويسكنه بيتا من أبياته العامرة بالمحاسن ، فيأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى بلفظه ولا يغير فيه غير البحر ، وربما عام به في بحر طويل ، يفترق إلى كثرة الحشو ، واستعمال ما لا يلائم ، فلم يسع الشيخ جمال الدين إلا أنه جمعه ، من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين ، واستهل خطبته بقوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتَنَا ﴾ (٢) ، ورتب كتابه المذكور على قوله : (قلت أنا :) ، (فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال :) (٣) ، وأورد ابن حجة اثنتين وعشرين مقطوعة ، زعم أن الصفدى سرق معانيها من ابن نباتة .

وإدعاء ابن حجة بأن ابن نباتة « كان يخترع المعنى الذي لم يسبق إليه » منقوض بقوله عنه : إنه « تطفل على موائد نكت الوداعي (٤) ومعانيه ، وعلى الأنواع الغريبة من تواريه » (٥) .

وقوله : « فكما أغار الشيخ جمال الدين على الوداعي ، ودخل إلى بيوته ، وابتذل حجاب بنات فكره ، قَبِضَ اللهُ له الشيخ صلاح الدين الصفدى » (٦) ،

(١) انظر : خزنة الأدب ١ / ٤١ .

(٢) سورة نوح : ٧١ / ٢٨ .

(٣) خزنة الأدب ٢ / ١٢١ .

(٤) على بن المظفر بن إبراهيم ، علاء الدين ، الكندي ، الإسكندراني (٦٤٠ - ٧١٦ هـ) أديب ، شاعر ، حافظ . انظر : تذكرة الحفاظ ٤ / ١٥٠٣ ، وأعيان مصر ٣ / ٥٤٦ ، وبدائع الزهور ١ / ١ / ٤٤٧ ، والأعلام ٥ / ٢٣ ،

ومعجم المؤلفين ٧ / ٢٤٣ .

(٥) خزنة الأدب ٢ / ١٠٨ - ١١٦ .

(٦) خزنة الأدب ٢ / ١٢١ .

ولا يكاد باب من أبواب خزانة الأدب يخلو من إيراد سرقات ابن نباتة من ابن سناء الملك^(١) ، والسراج الورّاق^(٢) ، والجزار^(٣) ، وابن عبد الظاهر^(٤) ، والبدر لؤلؤ الذهبى^(٥) ، وشيخ الشيوخ^(٦) ، وابن تميم^(٧) ، وغيرهم .

وما ذكره من سرقات الصفدى فهو أنموذج من التلفيق ، والتزوير ، يثير العجب ، فمثلا ، يقول^(٨) :

« قال الشيخ جمال الدين : قلت :

يَا عَاذِلِي شَمْسُ النَّهَارِ جَمِيلَةٌ وَجَمَالُ فَاتِنَتِي أَلَدُّ ، وَأَزِينُ
فَانظُرْ إِلَيَّ حُسْنَيْهِمَا مُتَأَمَّلًا وَادْفَعْ مَلَأَمَكَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

فأخذه الشيخ صلاح الدين ، مع البحر ، بل أخذ الكل ، مع القافية ، وقال :

بِأَبِي فَتَاةٍ مِنْ كَمَالِ صِفَاتِهَا وَجَمَالِ بَهْجَتِهَا تَحَاوُ الْأَعْيُنُ
كَمْ قَدْ دَفَعْتُ عَوَاذِلِي عَنْ وَجْهِهَا لَمَّا تَبَدَّتْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

وهذان البيتان ليسا من شعر الصفدى ، ولم ينسبهما له أحد ، وإنما هما للقاضى محبى الدين بن عبد الظاهر^(٩) ، وأخذهما عنه ابن نباتة « مع البحر ، بل أخذ الكل ، مع القافية » كما قال .

(١) خزانة الأدب ٢ / ٤٨ .

(٢) نفسه ٢ / ٧٠ .

(٣) نفسه ٢ / ٦٢ .

(٤) نفسه ٢ / ٦٨ .

(٥) نفسه ٢ / ٩٠ .

(٦) نفسه ٢ / ٧١ ، و٧٣ .

(٧) نفسه ٢ / ٧٥ .

(٨) نفسه ٢ / ١٢٣ .

(٩) أبو الفضل ، عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان ، الجذامى السعدى (٦٢٠ - ٦٩٢ هـ) أديب ، شاعر ، مؤرخ ، من كتاب الإنشاء . انظر : تذكرة الحفاظ ٤ / ١٤٧٧ ، وعيون التواريخ ١٤٠ ، والمنهل الصافى ٧ / ٩٨ ، والدليل الشافى ١ / ٣٨٧ ، وتذكرة النبيه ١ / ١٦٤ ، وعقد الجمان ٣ / ١٩٦ ، وتاريخ ابن الفرات ٨ / ١٦٢ ، والأعلام ٤ / ٩٨ ، ومعجم المؤلفين ٦ / ٧٤ . والبيتان له فى ديوانه (مخطوط الأزهر غير مرقم) ومعاهد التنصيص ٤ / ١٠٤ ، وأنوار الربيع ٥ / ٢٧ .

والغريب أنّ ابن حجة نفسه أوردتهما منسويين لابن عبد الظاهر ، ووصفهما بأنهما من بديع اقتباسه بالتورية ، ونصّ على أنّ ابن نباتة أخذهما عنه ، ومن بعده العز الموصلي ^(١) ، ووصف هذين الأخذين الأخيرين بقوله : « هذا الاقتباس بالتورية أخذهُ الشيخ جمال الدين بقافيته ، ولكن زاده إيضاحاً » ، و « ألمّ به الشيخ عز الدين الموصلي وما خرج عن إيضاحه أيضاً » ^(٢) .

فأخذ الصفدى من ابن نباتة - وهو زور وبهتان - « مع البحر ، بل أخذ الكل ، مع القافية » ، وأخذ ابن نباتة ، والعز الموصلي « بقافيته ، ولكن زاده إيضاحاً » . إنّ تحامل ابن حجة على الصفدى ، وحسده له حقيقة تنضح بها كتبه ، وبخاصّة خزانة الأدب ، وكشف اللثام ، بل إنه ليصرّح بذلك « وقد عنّ لى أنّى إذا فرغت من هذا الشرح أن أفرد باباً للتورية والاستخدام ، وأجعلهما مصنفًا مفردًا ، وأسميته « كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام » فإنّ الشيخ صلاح الدين الصفدى فى كتابه لم يشف القلوب بترتيبه ، ولا تفقه فى بديعه وغريبه » ^(٣) .

وهذا مثل آخر من أمثلة مجانية الصواب ، قال ^(٤) :

قال الشيخ جمال الدين ابن نباتة : قلت :

أَسْعِدْ بِهَا يَا قَمَرِي بَرَزَةً سَعِيدَةَ الطَّالِعِ وَالْعَارِبِ
صَرَغَتْ طَيْرًا ، وَسَكَنْتِ الْحَشَا فَمَا تَعَدُّتِ عَنِ الْوَاجِبِ

فأخذه الشيخ صلاح الدين ، وقال :

قُلْتُ لَهُ ، وَالطَّيْرُ مِنْ فَوْقِهِ يَصْرَعُهُ بِالْبُنْدُقِ الصَّائِبِ
سَكَنْتِ قَلْبِي ، فَحَرَّوَكْتَهُ فَقَالَ : لَمْ أَخْرُجْ عَنِ الْوَاجِبِ

(١) على بن الحسين بن على ، عز الدين (ت ٧٨٩ هـ) شاعر ، له ديوان شعر ، وبديعية . انظر :

الأعلام ٤ / ٢٨٠ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ٧٥ .

(٢) خزانة الأدب ٢ / ٦٧ - ٦٨ .

(٣) خزانة الأدب ٢ / ١٠٨ .

(٤) نفسه ٢ / ١٢١ .

ويشير النقاد^(١) إلى أن « نكتة الواجب » هذه من اختراع السراج الوراق^(٢) ،
وأن ابن نباتة أخذها من قول الوراق :

يَا سَاكِنًا قَلْبِي عَلَى أَنَّهُ يَوْجِدُهُ فِي قَلْبِي ذَائِبٍ
قَلْبِي مِنْ خَوْفِ التَّوَيِّ وَاجِبٍ وَأَنْتَ لَمْ تَخْرُجْ عَنِ الْوَاجِبِ

والمعروف أن الصفدى جمع ديوان السراج الوراق ، وانتقى منه كتابه « لمع السراج » ، والبيتان مما أوردهما له فى كتابه^(٣) ، والنظر الناقد يحكم بأن بيتي الصفدى أقرب إلى قول السراج منه إلى قول ابن نباتة معنى ولفظا ، والمعروف - أيضا - أن لابن نباتة مختارات من دواوين بعض الشعراء^(٤) ، وليس ديوان السراج الوراق من بينها ، ولم تكن حالته المادية تسمح له بامتلاك هذا الديوان الضخم الذى يقع فى ستة مجلدات ، والزاجح ، عندى أن ابن نباتة لم يعرف شعر الوراق إلا من خلال مكتبة الصفدى ، ولو أراد ابن حجة الإنصاف لقال : إن ابن نباتة والصفدى كليهما أخذ المعنى من السراج الوراق ، أمّا ادّعاؤه بأن الصفدى سرق المعنى من سارق مثله ، فلعمري هو الضلال بعينه .

ويمكن القطع بأن قصة « خبز الشعير » هذه تهمة باطلة ، لا أساس لها ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا : ليس لهذا الكتاب وجود مخطوط فى مكان معروف ، والمعاصرون لابن نباتة ، ومن بعدهم ، كالصفدى ، وابن كثير ، وابن حجر ، وغيرهم من ثقات المؤرخين الذين ترجموا ابن نباتة لم يذكروا له كتابا بهذا الاسم ، ولم يشر أحدهم إليه .

ثانيا : معروف أن ابن نباتة ولد قبل الصفدى ، وعاش بعده أربع سنوات ، فمتى ألّف هذا الكتاب ؟

(١) نفسه ٢ / ٥٥ ، ومعاهد التنصيص ٤ / ١٠٢ .

(٢) أبو حفص ، عمر بن محمد بن حسن سراج الدين (٦١٥ - ٦٩٥ هـ)

أشهر شعراء مصر فى عصره . انظر : درة الأسلاك ١٣١ ، وتذكرة النبيه ١ / ١٨٧ ، وعيون التواريخ ٢٠٧ ، وعقد الجمان ٣ / ٣٣١ ، وتالى وفيات الأعيان ١١٧ ، والسلوك ١ / ١ / ٨١٨ ، والأعلام ٥ /

٦٣ ومعجم المؤلفين ٣٠٩/٧

(٣) لمع السراج ٢٦٤ / ب .

(٤) انظر : ابن نباتة ٢٥٢ .

أماننا احتمالان : إما في حياة الصفدى ، أو بعد وفاته .
 فلو كان قد كتبه في حياة الصفدى لكان هو أول من نبه عليه ، وأشار إليه ، هذا
 ما نعرفه من خلق الصفدى ، وأمانته ، والدليل على ذلك :
 * أَنَّهُ يَصْرَحُ بِمَحَاكَاتِهِ مَوْشَحَاتِ الْمَحَارِّ (١) ، ويقول في تواضع جم :
 « فنظمت ، مع علمي ما ينبغي للعاقل أن يُعَارِضَ ما رَزَقَ السعد ، وبالله التوفيق » (٢) .
 * أَنَّهُ يَصْرَحُ بِأَخْذِهِ الْمَعْنَى مِنْ غَيْرِهِ ، فقد روى قول أبي عامر الفضل بن
 إسماعيل ، الجرجاني (٣) :

عَذِيرِي مِنْ شَادِنٍ أَعْضَبُوهُ فَجَرَّدَ لِي مُزَهَفًا بَاتِكَا
 وَقَالَ : أَنَا لَكَ يَابِنَ الْوَكِيلِ وَهَلْ لِي رَجَاءٌ سِوَى ذَالِكَا ؟
 أَخْذَهُ ابْنُ الْوَكِيلِ (٤) ، فقال :

وَيِي مَنْ قَسَا قَلْبًا ، وَلَانَ مَعَاظِفًا إِذَا قُلْتُ : أَذْنَانِي ، يُضَاعِفُ تَبْعِيدِي
 أَقْرُ بِرِقِّ إِذْ أَقُولُ : أَنَا لَهُ وَكَمْ قَالَهَا أَيضًا ، وَلَكِنْ لِتَهْدِيدِي

وقال : « وهذا المعنى قد ابتكره الجرجاني أبو عامر ، وترك فيه فضلة ، ف جاء
 الشيخ صدر الدين - رحمه الله تعالى - وجوده ، ولم يبق لأحد ، بعده مطمح إلى
 زيادة ، ولا مطمح في إفادة ، وما بقى إلا اختصار ألفاظه ، فقط ، فقلت :

قَالَ جَبِي : أَنَا لَهُ وَكَمْ قُلْتُ : سَزَمَدَا
 أَنَا لِمِلْكُ قُلْتُهَا وَهَوَ لِلنَّعِيظِ هَدَدَا

(١) أبو الخطاب ، عمر بن مسعود بن عمر ، سراج الدين ، الكتاني (ت ٧١١ هـ) شاعر ، أديب ،
 مؤرخ . انظر : أعيان العصر ٣ / ٦٦٢ ، والنجوم الزاهرة ٩ / ٢٢١ ، وإعلام النبلاء ٤ / ٥٠٠ ، والأعلام
 ٥ / ٦٦ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ٣٢٠ .

(٢) أعيان العصر ٣ / ٦٧١ .

(٣) الوافي بالوفيات ٤ / ٢٧٥ - ٢٧٦ ، والهول المعجب ٥٩ .

والجرجاني كان حيا عام ٤٥٨ هـ ، له ترجمة في دمية القصر ٢ / ١٥ .

(٤) أبو عبد الله ، محمد بن عمر بن مكى ، صدر الدين ، ابن المرحل (٦٦٥ - ٧١٦ هـ) فقيه ،
 شاعر . انظر : التذكرة الصفدية ج ١٣ / ١٠٢ / ب (مخطوط دار الكتب المصرية) وأعيان العصر ٥ /
 ٥ ، ودرة الأسلاك ٢٠٥ ، وذبول العبر ٤ / ٤٥ ، وتذكرة النبيه ٢ / ٧٧ ، والمقفى الكبير ٦ / ٤٣٥ ،
 وكنز الدرر ٨ / ٣٨٥ ، والأعلام ٦ / ٣١٤ ، ومعجم المؤلفين ١١ / ٩٤ .

* أنه يصرح بتفضيل شعر غيره على شعره ، أحيانا ؛ فيعلق على بيتين من شعر الحاجبي ^(١) ، قالهما في معنى بيتين له ^(٢) :

« قال هو ، واختصر ، وأجاد » .

ولو أخذ الصفدى من معانى ابن نباتة لذكر ذلك صراحة ، كما عودتنا أمانته العلمية .

ولو كان ابن نباتة قد كتب كتابه هذا بعد وفاة الصفدى ، فهل رضى لنفسه تجريح تلميذه ، وصديقه ، ومعينه على الشدائد ؟
لا أظن ذلك .

ففى سيرة ابن نباتة أنه كان كثير العيال ، قليل المال ؛ فقد كان الملك المؤيد يعطيه راتباً سنوياً مقداره ٦٠٠ درهم تدفع إليه بصفة منتظمة ^(٣) ، يعنى أقل من درهمين فى اليوم وكان أبوه يساعده ؛ فكان « كل ما يُحصَلُ ينفقه على أحفاده ، أولاد ولده » ^(٤) ، ويبدو أن الصفدى كان يزره ، ويمد له يد العون وبخاصة بعد وفاة الملك المؤيد ، فكتب إليه يعاتبه فى سنة ٧٣٢ هـ ^(٥) على تأخر برّه به ، وحرجه من مكاتبته له :

« إنه كان كسير خاطر ، حسير الناظر ؛ لانقطاع برّ مولانا الممتاز ، ولامتناع المملوك من المكاتبه ظناً أن بينها وبين القصد حجاز » ، أى يكون الوفاء بين الرجلين أن يجرح الحى منهما الميت ؟

ثالثاً : إذا تأملنا المعانى التى تضمّنها « خبز الشعير » نجدها نوعاً من اختيار القدرات ، وشحد القرائح ، ورياضة المواهب ، وهى صفات شاعت فى ذلك العصر ، وأصبحت أخصّ سماته ، فى الوقت الذى ندر فيه الابتكار ، وقلّ

(١) أحمد بن محمد ، شهاب الدين (ت ٧٤٩ هـ) جندى ، شاعر . انظر : أعيان العصر ١ /

٣٦٦ ، والوفى بالوفيات ٨ / ١٦١ ، والدرر الكامنة ١ / ٣١٢ والمنهل الصافى ٢ / ١٨٨ .

(٢) أعيان العصر ١ / ٣٦٨ ، ومثله فى الأعيان ٥ / ١٣٩ .

(٣) أعيان العصر ١ / ٥٠٥ .

(٤) أعيان العصر ٥ / ١٩٢ .

(٥) الوفاى بالوفيات ١ / ٣٢٠ .

التجديد؛ فامتلات كتب النقد عند الأقدمين بما عُرف بالتضمين ، والاقْتباس ، والإيداع ، والإيتباع ، والتشطير ، والتسميط ، والاهتمام ^(١) ، إلى جانب الألفاظ ، وغيرها من المسميات الكثيرة التي توحى بتداول المعاني .

ويورد ابن حجة نفسه أبياتا لمعان تسلسل دورانها ، بين جماعة من الشعراء - كالضّياع ، والدُّور ^(٢) - ولم يصف واحدًا منهم بالسرقة ؛ لأنّ المعنى إذا استفاض على ألسن الشعراء « حمى نفسه عن الشّرق ، وأزال عن صاحبه مذمة الأخذ » ^(٣) ؛ ولأنّ المعاني الجمهورية العامة لا تكون السرقة فيها ، ولا يختصّ بها شاعر دون غيره .

رابعاً : قال الصفدى ^(٤) : « كنت أجلس أنا وهو ، عند شبّاك الكامليّة ، نتذاكر ، فى الجامع الأموى ، كلّ ليلة ، بعد صلاة العصر ؛ فبين الرجلين صداقة ، ومودة ، ومطارحات ، ومحاورات ، ونجد قدرا مشتركا من الألفاظ ، والمعاني فى الأبيات التى حوتها الرسائل المتبادلة بين الشاعرين ، على نحو ما جاء فى خبز الشعير ، فمثلا :

قال الصفدى ^(٥) : « أنشدنى من لفظه ، لنفسه ، المولى جمال الدين محمد

ابن نباتة :

سَأَلْتُ النَّقَا ، وَالبَّانُ يَحْكِي لِتَاظِرِي رَوَادِفَ ، أَوْ أَعْطَافَ مَنْ طَالَ صَدُّهَا
فَقَالَ كَثِيبُ الرُّمْلِ : مَا أَنَا جِئِلْهَا وَقَالَ قَضِيبُ البَّانِ : مَا أَنَا قَدُّهَا
فلمّا أصبحت أنشدته ، فى معناه :

يَقُولُ رِدْفُ حَبِيبِي وَعِطْفُهُ الْمُتَنَنِّي :
مَا أَنْتَ يَا عُصْنُ قَدِّي وَلَا كَثِيبُكَ وَرَنِّي

فقال : ما أشبهه نظمى ، ونظمك إلاّ بيشار بن برد ، وسلم الخاسر .

(١) الاهتمام - أو النسخ - : هو السرقة فيما دون البيت . انظر : معجم البلاغة ٢ / ٩٠٤ .

(٢) خزانة الأدب ٢ / ٧٧ - ٧٩ .

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه ١٨٥ .

(٤) الوافى بالوفيات ١ / ٣٢٦ .

(٥) الغيث المسجم ١ / ٤٠٣ .

وقال الصفدى ^(١) : كنت قد نظمت قديما ، فى سنة سبعمائة وثمانية عشر

معنى خطر لى ، فى العذار ، وهو :

وَأَهْيَفَ كَالْغُصْنِ الرَّطِيبِ إِذَا انْتَنَى تَمِيلُ حَمَامَاتُ الْأَرَاكِ إِلَيْهِ
لَهُ غَارِضٌ ، لَمَّا رَأَى الطَّرْفَ نَاعِمًا أَتَى خَدَّهُ سِرًّا ، وَدَبَّ عَلَيْهِ

فوقفت على المعنى بعينه ، للمولى جمال الدين محمد ابن نباتة ، وأنشدنيه من

لفظه ، فيما بعد ، سنة سبعمائة وتسعة عشر :

وَبِمُهْجَتِي رَشَأُ يَمِيسُ قَوَائِمُهُ فَكَأَنَّهُ نَشْوَانٌ مِنْ شَفَتَيْهِ
شَغِفَ الْعِدَارُ بِخَدِّهِ ، وَرَأَهُ قَدْ نَعَسْتُ لَوَاحِظُهُ ، فَدَبَّ عَلَيْهِ

فنظمت أنا ، عندما وقفت عليهما ، سنة سبعمائة وعشرين :

عِدَارُكَ وَالطَّرْفُ يَا قَاتِلِي يُحَاكِيهمَا الْآسُ وَالنَّرْجِسُ
وَقَدْ صَارَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ فَهَذَا يَدِيبُ ، وَذَا يَنْعَسُ

ومن هذه النصوص نستدل على ما كان بين الرجلين من المطارحات ،

والمسامرات ، وتبادل المعانى .

وعلى هذا النحو - أيضا - أبيات بين الصفدى وأبى الثناء محمود ، وفيها

توجيه له بالإكثار من الجناس المركب ، وتدريب له على المعارضة ^(٢) .

ويبدو أنّ هذه المطارحات ، والنقائض كانت شائعة - أيضا - فى ذلك

الوقت ، يقول الصفدى فى ترجمة الخياط ^(٣) الشاعر ^(٤) : « كان قد سلطه الله

عليه ، كلما نظم شيئا ناقضه فيه ، فهما فرزدق وجريز عصرهما ، ولولا خوف

التطويل لأوردت كثيرا من ذلك » .

(١) العيث المسجم ٢ / ٨ - ٩ .

(٢) أعيان العصر ٥ / ٣٧٩ - ٣٩٩ .

(٣) محمد بن يوسف بن عبد الله ، شمس الدين ، الدمشقى ، المعروف بالضفدع (٦٩٣ -

٧٥٦هـ) شاعر هجاء ، له ديوان ضخيم . انظر : أعيان العصر ٥ / ٣٥٣ ، والوفى بالوفيات ٥ / ٢٨٣ ،

وفيات السلامى ١ / ٣٢٩ ، والأعلام ٧ / ١٥٣ ، ومعجم المؤلفين ١٢ / ١٢٧ .

(٤) أعيان العصر ٥ / ٣٥٨ .

لكل تلك الأسباب نفى مذمة « خبز الشعير » عن الشاعرين الكبيرين ، ولكن يبقى سؤالان :

من صاحب خبز الشعير هذا ؟

ولماذا قَصِدَ صاحبه الحطُّ من شعر الصفدى ؟

عن السؤال الأول أجيب : أغلب الظنَّ أنَّ خبز الشعير من وضع العز الموصلى ؛ إذ جمع في « تذكرته » بعض مطارحات أستاذه ابن نباتة مع زميل دراسته الصفدى ، ووجد فيها قدرا من المقطوعات الشعرية التي تشتمل على معنى واحد ، ولفظ مشترك ؛ فضمَّ بعضها إلى بعض ، وأذاعها في الناس ؛ لحاجة في نفسه من طريق تلميذه ابن حجة الذي وجد فيه خير معين على نفث سمومه ، فقد شُهر بكراهيته الشديدة للصفدى ، « والغمز فيه ، والتحامل عليه ، والإشارة بالنقص إليه » (١) ، كما عُرف عنه إزراؤه بشعراء عصره ، والحطُّ من أقدارهم (٢) ، ووافق طبق شتته . وعن السؤال الثاني أجيب : يبدو أنَّ الصفدى هو الذى أوحى إلى خصومه بما يصطنعون منه مغمزا فيه ، وفتح لهم طريقا يلجون فيها فقد ادعى أنَّ الحاجبي ، وابن الوردى يتتبعان شعره ، ويسرقان منه معانيه (٣) ، والحاجبي جندى ، محدود الثقافة ، قليل الخبرة بالرواية والشعر ، فلا غرابة أن يتتبع الصفدى ، ويسرق منه ، وأما ابن الوردى فهو شاعر فحل ، له أنصاره ، ومحبه ، ومنهم ابن حجر الذى انبرى للدفاع عنه ، وقال (٤) : « لم يأت بدليل على أنَّ ابن الوردى هو المختلس ، بل المتبادر إلى الذهن عكس ذلك ، نعم استشهد الصفدى على صحة دعواه بقول ابن الوردى :

وَأَسْرِقُ مَا أَرَدْتُ مِنَ الْمَعَانِي فَإِنْ قُتُّ الْقَدِيمَ حَمِدْتُ سَيْرِي
وَأِنْ سَاوَيْتُهُ نَظْمًا فَحَسْبِي مُسَاوَاةَ الْقَدِيمِ ، وَذَا لِيخْيَرِي
وَأِنْ كَانَ الْقَدِيمُ أَتَمَّ مَعْنَى فَهَذَا مَبْلَغِي ، وَمَطَاوُ طَيْرِي
وَأِنَّ الدُّرْهَمَ الْمَضْرُوبَ بِأَسْمِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ دِينَارِ غَيْرِي

(١) انظر : أنوار الربيع ١ / ١٢٨ .

(٢) انظر : شذرات الذهب ٧ / ٢١٩ ، والبدر الطالع ١ / ١٦٥ .

(٣) أعيان العصر ١ / ٣٦٨ ، و ٣ / ٦٩٣ ، وعنه البدر الطالع ١ / ٥١٤ .

(٤) الدرر الكامنة ٣ / ١٩٥ .

وإذا كان من الصعوبة بمكان محاولة إثبات السرقة بين شاعرين متعاصرين ، وبخاصة إذا جمعت بينهما أواصر الصداقة ، وروابط الدراسة ، وطول المعاشة ، في ظل بلد واحد ، وفي الوقت الذي شاع فيه تداول المعاني ، ونضوب القرائح ، واتجاه الشعراء إلى الصنعة اللفظية ، يزيّنون بها نظمهم ، بالرغم من كل ذلك فإنّ لنا وقفة مع رأى ابن حجر ؛ لنشأله :

بِمَ حَكَمْتِ - وَأَنْتِ الْحَافِظُ - عَلَى مَوْقِفِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ صَدَّقُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَذَّبُوهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ ؟ ^(١) ، وهل ترضى لنفسك أن تسلك هذه الطريق ؟ أَلَسْتَ مَنْ وَثَّقَ رِوَايَةَ الصَّفَدِيِّ وَرَدَّ رِوَايَةَ أَسَاطِيزِ الذَّهَبِيِّ ؟ ^(٢) ، أَلَبَلَّغَكَ مَنْ كَذَّبَ الصَّفَدِيُّ وَرَدَّ رِوَايَتَهُ ، وَمَا بَيْنَ أَيْدِينَا مِنْ تَرَاجُمِهِ تَجْمَعُ عَلَى أَمَانَتِهِ ؟

ثمّ ما دليلك أنت على أنّ الصفدى هو الذى يسرق معانى ابن الوردى ، وليس العكس ؟ أم يُطَلَّبُ منه هو الدليل ، وتُغْفَى منه أنت ؟ .

ثمّ كيف تنكر اعتراف ابن الوردى ، والاعتراف - شرعا ، وقانونا - سيّد الأدلّة ؟ ولماذا أخفيت الشهود ؟ فرواية الصفدى فى أعيان العصر الذى تنقل عنه ، تقول : « لَمَّا وَقَفْتُ عَلَى كِتَابِهِ - يَعْنِي ابْنَ الْوَرْدِيِّ - « الْكَلَامَ عَلَى مِائَةِ غَلَامٍ » عِنْدَ الْقَاضِي الرَّئِيسِ بِهَاءِ الدِّينِ حَسَنِ بْنِ رِيَّانٍ ^(٣) ، وَجَدْتُ غَالِبَهُ مِنْ نَظْمِي فِي « الْحَسَنِ الصَّرِيحِ فِي مِائَةِ مَلِيحٍ » وَكَانَ ذَلِكَ عُقْبَيْبَ قَدُومِي مِنَ الْقَاهِرَةِ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا مَوْلَانَا اكْتُبْ إِلَيْهِ ، وَقُلْ لَهُ : قَدْ وَقَعَ صَاحِبُ الْعَمَلَةِ بِهَا ، وَعَرَفَهَا ؛ فَكُتِبَ إِلَيْهِ ، وَعَرَفَهُ الْمَقْصُودُ ، فَغَيَّرَ فِيهَا أَشْيَاءَ ؛ فَلِهَذَا تَرَى نَسَخَتَيْنِ ، ثُمَّ وَقَفْتُ لَهُ عَلَى أَشْيَاءَ ، فِي غَيْرِ مَا نَوْعٍ قَدْ اغْتَضَبَهَا ، وَاخْتَلَسَهَا ، فَكُتِبَتْ إِلَيْهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - :

(١) لَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٦ : ٢١٤] صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّفَا ، وَسَأَلَ مَنْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْ قَوْمِهِ : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أُخْبِرْتُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي ؟ . قَالُوا : مَا جِئْتَنَا عَلَيْكَ كَذِبًا ، قَالَ : فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ ، بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ؛ فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : بَلَى لَكَ ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟ » وَانصَرَفُوا عَنْهُ مَكْذِبِينَ . رَاجِعِ السِّيْرَةَ النَّبَوِيَّةَ ، لِلذَّهَبِيِّ ١٤٦ .

(٢) انظر : الدرر الكامنة ١ / ٧٢ .

(٣) أبو محمد ، الحسن بن سليمان بن أبي الحسن بن سليمان بن ريان (٧٠١ - ٧٦٨ هـ) ناظر الجيش ، بحلب . انظر : الوافي بالوفيات ١٢ / ٣٥ ، والدرر الكامنة ٢ / ١٦ .

أَغْرَتَ عَلَيَّ أُبْكَارِ فِكْرِي ، وَلَمْ أَغْرُ
 وَلَوْ غَيْرُ مَوْلَايَ اسْتَبَاحَ حِجَابَهَا
 عَلَيَّهَا ؛ فَلَا تَجْزَعُ ، فَمَا أَنَا وَاجِدُ
 أَتَنُّهُ مِنَ الْعَثْبِ الْأَلِيمِ قَصَائِدُ
 وَأَلْسُنُهَا عِنْدَ الْخِصَامِ مَبَارِدُ
 وَلِكِنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
 فكتب هو الجواب إلي ، وأجاد :

وَأَسْرِقُ مَا أَرَدْتُ مِنَ الْمَعَانِي الأبيات

هل ما زال هناك شك بعد هذه الوقائع ، والشهود ، والاعتراف ؟ .

وأكتفى بما ذكرت ؛ لدحض فرية « خبز الشعير » لأكمل حديثي عن شعر

الصفدي .

شعر الصفدي وتواء النقد فيه :

إذا كان أهل صناعة أدري الناس بأسرارها ، والشعر صناعة لا يعرفها إلا أهل العلم بها ^(١) ؛ فابن نباتة في إجازته الصفدي يفرط في الثناء عليه ، وعلى شعره الذي « يسرى الطائيات تحت علمه المنشور... إن شَعَرَ هامت الشعراء بذكره في كل واد ، وَخَمَلٌ ذُكِرَها فِي كُلِّ نَادٍ ، وَنُصِبَتْ بيوتُه على يَفَاعِ الشَّرَفِ ، كما تنصب بيوت الأجواد ، طالما بلد ليبيدا ، وولّى شعر ابن مقبل منه شريدا ، وقالت الآداب لبحترى لفظه : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرِيكَ فِينَا وَلَيْدًا وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عَمْرِكَ سِينِينَ ﴾ ؟ ^(٢) .

وفي بعض الأحيان يكون الطعن ، والتجريح أصدق الأدلة على عظمة الشاعر ، وعلو قدره ، وارتفاع منزلته ؛ فلكل شاعر كبير المعجبون به ، والحاقدون عليه ، ورأى الفريقين يخدم العلم ، ويثرى فنّ النقد ، ويكشف جوانب مجهولة ، في شعره ، و يجلّي غوامض مذهبه الفنى ، وخصائص أسلوبه ، وقد وجد الصفدي من الشعراء ، والنقاد طائفتين :

(١) انظر : طبقات فحول الشعراء ٨ ، والعمدة ١ / ١١٧ .

(٢) الوافي بالوفيات ١ / ٣١٥ ، وخزانة الأدب ٢ / ١٣٥ . وهى إشارة إلى الآية الكريمة ١٨ من

واحدة : تحسده ، وتتحامل عليه ، كان يتزعمها العز الموصلى ، والبدر البشتكى^(١) ، وابن أبى حجلة^(٢) ، وابن حجة .

* قال البدر البشتكى معلقاً على ولع الصفدى بالجناس الملقق : « إِنَّ مَنْ ذَلِكَ مِبلغه من النظم لتجدير أن يقعد مع صغار المتأدين »^(٣) .

* قال ابن حجة : « كان الشيخ صلاح الدين الصفدى يستسمن وزمه ، ويظنه شحماً ؛ فيشبع أفكاره منه ، ويملاً بطون دفاتره ؛ ويأتى فيه بتراكيب ، تخف عنها جلاميد الصخور »^(٤) .

* وكان ابن أبى حجلة « يغمز فيه ، وفيما كان من شعر ورسالة يأتيه ، فقد علّق على قول الصفدى^(٥) :

يَا طَيْبَ نَشْرِهِ لِي مِنْ نَحْوِكُمْ فَأَثَارَ كَامِنٍ لَوْعَتِي ، وَتَهْتِكِي
أَهْدَى تَحِيَّتِكُمْ ، وَأَشْبَهَ لُطْفِكُمْ وَرَوَى شَذَاكُمُ ، إِنَّ ذَا نَشْرٍ ذِكِي
قال ابن أبى حجلة :

إِنَّ ابْنَ أَبِيكَ لَمْ تَزَلْ سِرْقَاتِهِ تَأْتِي بِكُلِّ قَبِيحَةٍ ، وَقَبِيحِ
نَسَبِ الْمَعَانِي فِي النَّسِيمِ لِتَنْفِيهِ جَهْلًا ، قَرَّاحَ كَلَامُهُ فِي الرِّيحِ
والثانية : تناصره ، وتدافع عنه ، منهم : ابن كثير ، وابن تغرى بردى ، وابن معصوم ، والخوانسارى^(٦) .

(١) أبو البقاء ، محمد بن إبراهيم بن محمد ، الأنصارى (٧٤٨ - ٨٣٠ هـ) أديب ، شاعر ، ألف في طبقات الشعراء ، وله ديوان شعر .

انظر : الأعلام ٥ / ٣٠٠ ، ومعجم المؤلفين ٨ / ٢١٥ .

(٢) أبو العباس ، أحمد بن يحيى بن أبى بكر ، شهاب الدين التلمسانى (٧٢٥ - ٧٧٦ هـ) شاعر ، أديب ، له أكثر من ثمانين مصنفًا .

انظر : الأعلام ١ / ٢٦٨ ، ومعجم المؤلفين ٢ / ٢٠١ .

(٣) خزانة الأدب ١ / ٥٦ .

(٤) نفسه ١ / ٥٥ .

(٥) خزانة الأدب ٢ / ٦٥ ، وعنه روضات الجنات ٧١٧ .

(٦) محمد باقر بن زين العابدين بن جعفر الموسوى (١٢٢٦ - ١٣١٣ هـ) مؤرخ ، أديب ، صاحب روضات الجنات .

انظر : الأعلام ٦ / ٤٩ ، ومعجم المؤلفين ٩ / ٨٧ .

وهذه طائفة من أقوال النقاد فى شعره :

* قال ابن كثير : « له الأشعار الفائقة ، والفنون المتنوعة » (١) .

* قال ابن تغرى بردى : « لولا أنه كان راضيا بشعره ؛ لكان يندر له الردىء ، ويكثر منه الجيد ؛ فإنه كان غوّاصا على المعانى ، مبتكرا للنكت البديعة ، عارفا بفنون الأدب ، وعندما يعارض بعض من تقدّمه من مجيدى الشعراء ، فى معنى من المعانى اللطيفة ينظم بيتين ، يجيد فيهما ، ثم ينظم - أيضا - فى ذلك المعنى بعينه ، بيتين آخرين ، ثم بيتين ، ثم بيتين ، ولا يزال ينظم فى ذلك المعنى ، إلى أن يملّ النظر ، وتسأمه النفس ، ويمجّه السمع ، فلو ترك ذلك ، وتحوى القصد فى قريضه لكان من الشعراء المجيدين ؛ لقوة شعره ، وحسن اختراعه » (٢) .

* قال ابن معصوم : « كم له من نثر وشعر هما من سحر البيان أو بيان السحر » (٣) .

* قال الحوّائسارى : « لهذا كان شعره فى غاية الجودة والجمال وقوة تمييزه من أرفع قوى شعراء الأصقاع » (٤) .

الخصائص الفنية لشعر الصفدى

الصفدى من كبار شعراء عصره المجيدين ، ومن أغزرهم شعرا ، ومن أكثرهم أغراضا ؛ ولم يكن إعجاب الصفدى بنفسه ، وبشعره هما - وحدهما - سبب وقوعه فى النظم الركيك ، بل يضاف إلى ذلك كثير من قيود الصنعة ألزم بها نفسه ، وحاول - بالرغم من ثقل قيوده - النهوض ، والسمو ، وسعى إلى مجازاة الفحول المطبوعين ، فمن تلك القيود :

١ - لزوم ما لا يلزم ، وإنه ليباهى به ، ويقول : « وغالب ما أنشئته أنا إنمّا آتى به ملزوما » (٥) ، كقوله (٦) :

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣٠٢ .

(٢) المنهل الصافى ٥ / ٢٤٣ .

(٣) أنوار الربيع ١ / ١٢٨ .

(٤) روضات الجنات ٧١٧ .

(٥) نصرة الناثر على المثل السائر ١٥٧ .

(٦) صرف العين ١٢١ / ب مخطوط العمومية .

جَدَّ الْهَوَىٰ بِالشَّجِيءِ الْمُعْتَىٰ وَأَنْتَ هَازٍ بِهِ ، وَهَازِلٌ
 وَحَزْبٌ عَيْنِيكَ فِي سَطَاهَا تَغْلُو الثُّرَيَّا ، فَمَنْ يُنَازِلُ ؟
 فَكُفُّفٌ سِيَهَامَ الْجُفُونِ عَنِّي فَأَنْتَ غَازٍ لِمَنْ تُغَازِلُ
 ٢ - الجناس الملقى ، ويكون كُلُّ من ركنيه مرَكَّبًا من كلمتين ، فصاعدًا ،
 كقوله (١) :

مَتَى تَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ تَرَقِّ إِلَى الْعَلَا وَتَلَقَّ سُعُودًا فِي اَزْدِيَادِ سُعُودِ
 وَإِنْ تَغْرِسِ الْإِحْسَانَ تَجْنِ الثَّمَارَ مِنْ مَغَارِ سُعُودِ ، لَا مَغَارِسِ عُودِ

وكان الصفدى يكثر من الجناس فى شعره ؛ حتى أتى فيه بالركيك السخيف ، وأطلق فيه لسان خصومه ، وقد نسب ابن حجة إلى مذهب قتي مخالف لمذهبه ، قال (٢) : « ما أطرف ما وقع له - يعنى : الصفدى - مع الشيخ جمال الدين ابن نباتة ، وذلك أنه لما وقف على كتابه المسمى بـ « جنان الجناس » ، وقد اشتمل على كثير من هذا النوع قرأه « جنان الحُنَّاس » ، وجرى بينهما بسبب ذلك ما يطول شرحه ، وهذا مما يؤيد قولى : أنه غير مذهبي ، ومذهب من نسجت على منواله » . وأكد هذا القول ، مع بيان السبب ، فقال : « أمَّا الجناس ، فإنه غير مذهبي ، ومذهب من نسجت على منواله ، من أهل الأدب ، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ ؛ فإنَّ كلا منهما يودى إلى العقادة ، والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة ، فى مضمار المعانى المبتكرة » (٣) .

ولم يكن مذهب الصفدى التجنيس - وإن أكثر منه - كما زعم ابن حجة ، بل كانت التورية أخص صفات مذهبه الفنى كما اتضح لى من أكثر شعره ، وكما سأبثه ، بعد .

٣ - التضمين ، وهو من الظواهر الشائعة فى عصره ، كقوله (٤) :

(١) أنوار الربيع ١ / ١٢٧ .

(٢) خزنة الأدب ١ / ٥٦ .

(٣) خزنة الأدب ١٢ / ٥٤ .

(٤) صرف العين ٧٣ / أ ، وفى البيتين تضمين لقول الشاعر :

وَمَاذَا عَسَى الْوَأَشُونَ أَنْ يَتَحَدَّثُوا سِوَى أَنْ يَقُولُوا : إِنَّنِي لِكِ عَاشِقُ

والبيت للمحنون فى ديوانه ٢٠٣ ، ولجميل فى ديوانه ١٤٣ .

أَيَا مَنْ سَبَانِي ، كُفُّ جَفْنِكَ عَنِّي إِنَّهُ
عَدَا فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ بِالسُّخْرِ يَنْفُثُ
وَدَعْنِي وَمَا قَالَ الْوُشَاءُ ، وَنَعَمَّا
وَ فَمَاذَا عَسَى الْوَأَشُونَ أَنْ يَتَحَدَّثُوا ؟

وقد يجمع في شعره بين التضمين ولزوم ما لا يلزم ، كقوله (١) :

يَا لَأَيْمِي فِي سُكْرِ أَشْجَانِي وَلِي مِنْهَا عَبُوقٌ ذَائِمٌ وَصَبُوحُ
نَظْرُ الْحَبِيبِ إِذَا طَلَبْتُ وَصَالَهُ وَهُوَ الْعَدُوُّ بِمَا أَسْرَّ يَبُوحُ

٤ - نظم المصطلحات العلمية ، والتورية بأسماء الكتب ، وأعلام الرجال ،
وغير ذلك مما هو شائع بين شعراء عصره ، كقوله (٢) :

وَطَبِي مَعَانِيهِ بَيَانٌ ، بَدِيعُهَا نُهُ حَارٌ فِكْرِي إِذْ رَأَى كُلُّ مُعْجِزِ
قَرَأْتُ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ كُلَّهَا بِعَارِضِهِ مَشْرُوحَةً لِلْمُطَرِّزِي

٥ - رغبته الشديدة في الإكثار جعلته يرضى بالأشياء الرخيصة ، ويأتي بما
يعيب (٣) .

٦ - مناصبه الرسمية ، وارتباطه بالأمرء ، والملوك فرضت عليه أن يكتب في
كل مناسبة ، وينظم في كل وقت ، ولو لم تحركه عاطفة قوية ، أو يثيره إحساس
صاقد ؛ ولذلك جاء كثير من شعره بارداً ، لا يعبر عن تجربة صادقة .

وإذا رجع الصفدى إلى حسه الفنى ، ونفسه الصافية ، وسائر طبعه ، وقته ،
وابتعد عن تلك القيود ، ونظم على سجيته أبداع ، وبرع ، وأجاد ، بل ربما تفوق
على كثير من شعراء عصره ، والدليل على ذلك أن ابن حجة - وهو أشد أعدائه

(١) صرف العين ٧٦ / أ ، وفي البيتين تضمين لقول المتنى ، والبيت في ديوانه ٦٢ :

يُخْفِي الْعَدَاوَةَ ، وَهِيَ غَيْرُ خَفِيَّةٍ نَظْرُ الْعَدُوِّ بِمَا أَسْرَّ يَبُوحُ

(٢) خزنة الأدب لابن حجة ٢ / ١٥٧ .

والمطّوّرزي هو : أبو الفتح ، ناصر بن عبد السيد ، برهان الدين ، الخوارزمي ، انحنى (٥٣٨ -

٦١٠ هـ) عالم ، أديب ، له شرح مشهور على مقامات الحريري ، انظر : الأعلام ٧ / ٣٤٨ ، ومعجم

المؤلفين ١٣ / ٧١ .

(٣) خزنة الأدب ، لابن حجة ٢ / ١٦٦ .

عليه ، وأكثرهم شأنا ، وحسداً له - أورد له إحدى وستين تنفة شعرية ، فى باب التورية وحده ^(١) ، ولم يملك إلا الإعجاب ببعضها ، من مثل قوله تعليقا على بيتى الصفدى :

أَقُولُ ، وَحَرُّ الرَّمْلِ قَدْ زَادَ وَقْدُهُ وَمَا لِي إِلَى شَمِّ النَّسِيمِ سَبِيلُ
أَظُنُّ نَسِيمَ الْجَوْ قَدْ مَاتَ ، وَأَنْقَضَى فَعَهْدِي بِهِ فِي الشَّامِ وَهُوَ عَلِيلُ

قال ابن حجة ^(٢) : « النسيم العليل تلاعبوا به كثيرا ، ولكن قول الصفدى « فَعَهْدِي بِهِ فِي الشَّامِ وَهُوَ عَلِيلُ » فى غاية اللطف .

ومن كثرة ما رواه ابن حجة ، فى باب التورية ، من شعر الصفدى يظهر لنا مذهبه الفنى ؛ فقد كان شديد الإعجاب بشعر شيخ الشيوخ ، وطريقته ، قال ^(٣) : « لا أعرف ، فى شعراء الشام ، من بعد الخمسمائة ، وقبلها من نظم أحسن منه ، ولا أجزل ، ولا أفصح ، ولا أصنع ، ولا أسرى ، ولا أكثر ؛ فإن له « لزوم ما لا يلزم » مجلّد كبير ، وما رأيت له شيئا إلا وعلقتة لما فيه من النكت ، والتوريات القاعدة ، والقوافى المتمكّنة ، والتركيب العذب ، واللفظ الفسيح ، والمعنى البليغ » .

وكلام ابن حجة عن الجناس ، وثقله هو نفسه كلام الصفدى « فإن تكرار الحروف على اللسان بالثقل ، والخفة أعقد ، ويحتاج إلى إحضار الذهن ؛ لئلا يقع التحريف ، وينطق بالأول كالثانى ، وعكسه ، فإن قلت : هذا يرد على باب الجناس كله ، وهو معدود من البديع ، قلت : الجناس ، وإن كان من أنواع البديع لكن بعض صورته مستثقل » ^(٤) .

وكلام ابن حجة هو نفسه كلام الصفدى فى التورية « فهما يتفقان على أن التورية من أعلى فنون البديع ، وأغلاها رتبة وأعظمها فى الأذواق السليمة موقعا ، ويتفقان على أن الاستخدام أشرف من التورية ، وأقل ورودا فى الكلام منها ، وقل من

(١) خزانة الأدب ٢ / ١٥٥ - ١٦٦ .

(٢) نفسه ٢ / ١٥٩ .

(٣) انظر : الوافى ١٨ / ٥٤٧ .

(٤) الغيث المسجم ٢ / ٦٣ .

البلغاء من تكلفه ، وصحّ معه بشروطه ؛ لصعوبة مسلكه وشدة التباسه بالتورية ؛ لأنه يحتاج إلى لطف ذوق ، وحدة ذهن ، وتوقّد فكر ^(١) .

ويتضح من كلام ابن حجة عن الجنس ، وأنه ليس مذهبه ، ولا مذهب شيوخه من أهل الأدب ، وإنما هو مذهب الصفدى ، يتضح أنه مجرد مناسبة للنيل من الصفدى ، والحط من قدره ، دون دليل ، ونحن عندما نقرأ شعره نجد أنه لا يعبر « الجنس » أهمية كبيرة وأنّ ما جاء منه في شعره هو الجنس المركب ، أو الملقق ، ويبدو لى أنّ سبب إكثاره من هذا النوع كان رياضة عقلية ، وتدريباً على مهارات النظم ، وجهه إليه شيخه أبو الثناء محمود ، قال الصفدى ^(٢) : « لما قرأت عليه قوله فى كتاب « حسن التوسل » :

فَلَمْ أَرِ مِثْلَ نَشْرِ الرَّؤُضِ لَمَّا تَلَاقَيْنَا ، وَبِنْتَ الْعَامِرِىِّ

جَرَى دَمْعِي ، وَأَوْمَضَ بَرَقَ فِيهَا فَقَالَ الرَّؤُضُ : فِى ذَا الْقَامِ رِئِي

أخذت فى الزّهة ^(٣) لما فى هذين البيتين من الجنس المركب ، وبالغت فى الثناء عليهما ، فقال لى : خُذْ نَفْسَكَ بِنِظْمِ شَيْءٍ فِى هَذِهِ الْمَادَّةِ ، فَاثْمَنَتْ ، فَقَالَ : لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ ، فَعَبْتُ عَنْهُ يَوْمِي ، وَجِئْتُهُ فِى الْيَوْمِ الثَّانِي ، وَأَنْشَدْتُهُ لِنَفْسِي ، فِى هَذِهِ الْمَادَّةِ :

بِقَوْلِ الشَّافِعِيِّ اعْمَلْ تُحَقِّقْ مُنَاكَ ، فَمَا تَرَى كَالشَّافِعِيِّ

فَكَمْ فِى صَاحِبِهِ مِنْ بَخْرِ عِلْمٍ وَمِنْ حَبْرِ وَمِنْ كَشَافِ عِي

فقال : حسن ، وعجّب بهما الحاضرين . ثم قال : إِلَّا أَنَّ قَافِيَتِي أَنَا رَائِيَّةٌ ، فَعَبْتُ عَنْهُ يَوْمِي ، وَأَتَيْتُهُ فِى غَدٍ ، وَأَنْشَدْتُهُ لِنَفْسِي :

أَرَى فِى الْجُودَرِيَّةِ ظَنِّي إِنْسِي فَيَا سَعْفِي بِهِ مِنْ جُودَرِي

لِيَبَارِقَ فِيهِ سَحْتُ سُحْبِ دَمْعِي فَقَالَ الرَّؤُضُ : إِنَّ الْجُودَ رِئِي

وأُشْدُ مَقْطُوعَةٌ رَائِيَّةٌ أُخْرَى غَيْرَ مُؤَسَّسَةٍ ؛ فَطَلَبْتُ إِلَيْهِ أَبُو الثَّنَاءِ مَحْمُودٌ بَعْدَ الْقَافِيَةِ

(١) راجع : مقدمة فض الختام ٩٩ .

(٢) راجع : أعيان العصر ٥ / ٣٧٩ - ٢٨١ .

(٣) زهرة : استحسن ، أو صفق بيديه . انظر : Dozy : Supp. dict. Arab. V.I. P. 609.

الرأية ، أن ينظم فى قافية مؤسسة ، ثم ينظم فى غرض الغزل ، بدلا من المديح ، وهكذا ، وفى كل مرة ينشده الصفدى ما طلب ؛ فيبدي إعجابه بما يسمع من نظمه ، فى الجنس المرّكب ، فكتب مقاطيع كثيرة ، فيه ، جاء فيها بالغث أكثر من السمين ، مما أطلق فيه لسان حاسديه ، فقال فيه البدر البشتكى قوله السابقة^(١) ، وتصدى له ابن معصوم يدافع عنه ، ويلتمس عذرا للصفدى بأنّ الجنس الملقق من أصعب أنواع الجنس مسلكا ، ولا يلزم من ركافة هذا المقدار من نظمه انحطاط مقدار الناظم^(٢) .

نحن وإن كنا لا نقبل بعذر ابن معصوم ؛ لأنّ التكلّف مذموم فى حدّ ذاته ، والنظم الركيك لا عذر لناظمه ؛ فما أرغمه أحد عليه ، لكنّ الرأى المقبول - كما سبق القول - إنّ هذا النوع من النظم كان رياضة ذهنية ، وتدريرا تعليميا ، وليس تعبيرا شعريا عن معنى أرادّه الشاعر .

أغراض شعره

أكثر النقاد من محاولة إحصاء المعانى والأغراض التى يتناولها الشعراء فى شعرهم^(٣) ، ومما لا شكّ فيه أنّ شعراء العصر المملوكى قد نظموا فيما نظم فيه الشعراء السابقون ، وابتكروا أغراضا لم تكن معروفة ، من قبل ، وفى تقسيم الصفدى شعره إلى مجموعة من الأغراض جعلها ٤٧ موضوعا ، فى كتابه « الروض الباسم والعرف الناسم » وسأقدم اختيارات منه تظهر أغراضه ، وأضيف إليها ، من كتبه الأخرى ما لم يمتثل له فى كتابه هذا .

أولا : المدح ، وهو أنواع ، منها :

١ - المدح النبوى : وهو من أكثر الأغراض الشعرية شيوعا فى ذلك العصر ،

(١) انظر : صفحة ٢٣٤ من هذا البحث .

(٢) أنوار الربيع ١ / ١٢٨ .

(٣) جعلها بعضهم عشرة ، بناء على تويب أبى تمام فى الحماسة ، وجعلها بعضهم ثمانية عشر بناء

على تقسيم ابن أبى الإصبع .

بل إنَّ من الشعراء من أفرد له ديوانا خاصا ، ومما قاله الصفدى فى مدح رسول الله ﷺ معارضا كعب بن زهير رضى الله عنه قصيدة أولها (١) :

سَلُّوا الدُّمُوعَ فَإِنَّ الصَّبَّ مَشْعُولُ
وَلَا تَمَلُّوا ؛ فَفِي إِثْلَائِهَا طُولُ
وَاسْتَحْبِرُوا صَادِحَاتِ الْأَيْكِ عَن شَجْنِي
هَلْ فِي الْغَرَامِ الَّذِي تُبَدِيهِ تَبْدِيلُ ؟

وفى تخلصها يقول :

وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا ، بَرِّدْ لَطْفِي كِبْدِي فَإِنَّ ذَيْلِكَ بِالْأَنْدَاءِ مَبْلُولُ
وَإِحْمِيلَ رَسَائِلِ أَشْوَاقِي لِطَبِيبَةٍ لَا زَالَتْ نُحْتُ لَهَا الثُّجْبُ الْعَرَّاسِيلُ
سَلِّمْ عَلَيَّ زِينَهَا الْمَخْرُوسِ إِنَّ لَهَا مَجْدًا لَهُ بِرَسُولِ اللَّهِ تَأْتِيلُ
مُحَمَّدٍ خَيْرِ مَبْعُوثٍ لِأُمَّتِهِ فِي الْحَشْرِ ، وَالنُّشْرِ تَقْدِيمُ ، وَتَفْضِيلُ
سَادَتْ قُرَيْشٌ بِهِ الْأَعْرَابَ قَاطِبَةً فَكَمْ لَهَا مِنْهُ تَنْوِيَةٌ ، وَتَنْوِيلُ

وهى قصيدة طويلة فى ٦٦ بيتا ، ولم تخرج معانيه فيها عمّا جاء فى قصيدة كعب الشهيرة ، وما جاء فى بردة البوصيرى ، وتدور تلك المعانى حول قِدَمِ نَبَوْتِهِ ﷺ ، وتبشير الأنبياء به ، وانشقاق إيوان كسرى عند مولده ، وانطفاء النار المقدسة فى معابد الفرس ونزع الملائكة من قلبه موضع نزع الشيطان ، وتعرّف الراهب بحيرى على علامات نبوته ، وتنبيه عمّه إلى ضرورة الحفاظ عليه ، وتحتته فى غار حراء ، وبدء نزول الوحى ، ووصف القرآن الكريم جبل الله المتين ، وبلاغته ، وإعجازه ، وتحديده فصحاء العرب ، وجهره بدعوة الحق ، وجهاد المشركين ، وصفات صحابته الكرام ورفعهم لواء الدين ، إلى أن ظهر على الأديان كلّها ، ثم يختم قصيدته بإبداء الرغبة فى زيارة قبر الرسول ﷺ ، والتصرّح إلى الله بأن يكون شفيعا له ؛ فقد أثقلته الذنوب ، ولا رجاء له إلا الشفاعة .

وهذا المديح النبوى نابع من قلب صاف ، وعاطفة نقيّة ، « فالشاعر أمام النبى ﷺ لا يطلب وظيفة ، ولا جائزة ، ولا جاها ولا عطفًا أو محاباة مما عرفه ديوان

المدح العربى ، بل ينشد راحة الضمير ، ورضا الله ، ورسوله ، وصحابة رسوله ، وأهل بيته ؛ لينعم بسعادة الدين والدنيا ، ويتم أركان كتابته ، ونظمه « (١) .
وبالرغم من أن الصفدى كان مرددا لأقوال السابقين ، متتبعا لمعانيهم ، مقيدا بأسلوبهم ، ومع ذلك نلاحظ على مدحه النبوى أمرين :

الأول : ظهور أثر ثقافته الواسعة ، فى دراسة السيرة النبوية ، والحديث الشريف ، من مثل قوله :

كُلُّ يَجِيءُ ، وَأَثَارُ الْوُضُوءِ لَهُ فِى حَشْرِهِ غُرَّةٌ زَانَتْ ، وَتَحْجِيلُ
أَعْمَالُهُمْ تُشْبِهُ التَّيْجَانَ فَوْقَهُمْ لَهَا الْهُدَى ، وَالتَّقَى ، وَالْعِلْمُ إِكْلِيلُ

والثانى : خلو تعبيره من جميع صور المحسنات ، والصنعة ، واكتفاؤه بالتعبير السلس ، الواضح ، مع ظهور لمحة فنيّة فى تعبيره الشعرى الراقى ، من مثل قوله :

وَقَامَ فِى اللَّهِ أَقْوَامٌ إِذَا ذُكِرُوا يَوْمَ الْوَعَى فَهُمْ الْغُرُّ الْبَهَائِلُ
وَأَفْوًا يُلْبِثُونَهُ طَوْعًا ، فَقَابِلُهُمْ مَعَ الْهُدَى مِنْهُ تَرْجِيْبٌ ، وَتَأْهِيْلُ

ومن شعره معارضته للقصيدة الشهيرة ، لابن الخيمى (٢) التى مطلعها (٣) :

يَا مَطْلَبًا لَيْسَ لِي فِى غَيْرِهِ أَرْبُ إِلَيْكَ آلَ التَّقْصَى ، وَأَنْتَهَى الطَّلَبُ
وهى قصيدة شهيرة ، ادّعاها ابن إسرائيل لنفسه (٤) ، واحتكم فيها الشاعران إلى

(١) آفاق الشعر العربى ١١٧ .

(٢) أبو عبد الله ، محمد بن عبد المنعم بن محمد ، شهاب الدين ، الأنصارى (٦٠٢ - ٦٨٥ هـ) شاعر ، أديب ، متصوف . انظر : ذيل مرآة الزمان ٤ / ٣٠٠ ، وملاء العيبة ٣ / ١٩١ ، والنجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ٣٠٦ ، وتذكرة النبيه ١ / ١٠٦ ، وعقد الجمان ٢ / ٣٥٦ ، والمقفى الكبير ٦ / ١٤٣ ، وشعراء الصوفيّة المجهولون ٨٣ ، والأعلام ٦ / ٢٥٠ .

(٣) الوافى بالوفيات ٤ / ٥١ ، وفوات الوفيات ٣ / ٤١٦ .

(٤) أبو المعالى ، محمد بن سوار بن إسرائيل ، نجم الدين ، الشيبانى (٦٠٣ - ٦٧٧ هـ) شاعر ، متصوف . انظر : ذيل مرآة الزمان ٣ / ٤٠٥ ، وعيون التواريخ ٢١ / ٢٠٥ ، وعقد الجمان ٢ / ٢٠٩ ، وتاريخ ابن الفرات ٧ / ١٣١ ، والمقفى الكبير ٥ / ٧٠٨ ، ودائرة معارف إفرام البستانى ٢ / ٣٣٥ ، وشعراء الصوفيه المجهولون ٦٩ ، والأعلام ٦ / ١٥٣ ، ومعجم المؤلفين ١٠ / ٥٨ .

ابن الفارض^(١) ، وعارضها كثير من الشعراء ، منهم : ابن الخيمي نفسه ، وابن إسرائيل ، والتلمساني^(٢) ، وأبو الثناء محمود ، والصفدى ، ومطلع قصيدته :

يَا جِيرَةً مُدُّ نَأْوًا ، قَلْبِي بِهِمْ يَجِيبُ وَلَوْ قَصَصِي مَا قَصَصِي بَعْضَ الَّذِي يَجِبُ

وهي قصيدة في ٣٣ بيتا ، ليست في مستوى ما سبقها من القصائد ، وهو نفسه اعترف بذلك ، فقدّم لها بقوله : « وقلت أنا في هذه المادّة ، وإنّ لم أسلك الجادّة » ، والقصائد كلّها من الغزل الصوفي الذي سمّاه الدكتور يا سين الأيوبي « المدح الإلهي » الذي يدور - كما يقول - على التسبيح ، والعبادة ، والزهد في الحياة الدنيا ، والعمل الصالح ذخرا ليوم المعاد والحساب^(٣) ، واختار أبياتا للصفدى علّق عليها بقوله : « التكلّف باد فيها ... لكنّها رغبة الشاعر - ومعه عدد من معاصريه - في مجاراة بعضهم البعض ، وركوب المركب نفسه ، إمّا غير ، وإمّا إحساسا بالتفوّق ، أو غير ذلك مما يجري في ظروف ، وموضوعات مشابهة »^(٤) . وفي معارضة الصفدى لقصيدة ابن الخيمي نجد كثيرا من أبياتها تفيض رقةً ، وعذوبة ، وتخلو من التكلّف ، وتعبّر عن حبّ صادق ، وعاطفة سامية ، كقوله^(٥) :

بِاللَّهِ يَا صَاحِ ، رَوْحِي بِذِكْرِهِمْ
وَزِدْ ، عَسَى أَنْ يَخِفَّ الْوَجْدُ ، وَالْوَصْبُ
وَيَا رَسُولِي إِلَيْهِمْ ، صِفْ لَهُمْ أَرْقَى
وَإِنَّ طَرْفِي لِضَيْفِ الطَّيْفِ مُرْتَقِبُ

(١) أبو حفص ، عمر بن علي بن مرشد ، شرف الدين ، سلطان العاشقين (٥٧٦ - ٦٣٢ هـ) شاعر ، متصوف . انظر : تكملة إكمال الإكمال ٢٧٠ والنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ٣٠٥ ، وحسن المحاضرة ١ / ٥١٨ ، والكنى والألقاب ١ / ٣٧٤ ، والأعلام ٥ / ٥٥ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ٣٠١ .

(٢) أبو الربيع ، سليمان بن علي بن عبد الله ، الكوفي ، عفيف الدين (٦١٠ - ٦٩٠ هـ) شاعر ، متصوف . انظر : الوافي بالوفيات ١٥ / ٤٠٨ ، والكنى والألقاب ٢ / ١٢٢ ، والأعلام ٣ / ١٣٠ ، ومعجم المؤلفين ٤ / ٢٧٠ .

(٣) آفاق الشعر العربي ١٣٣ .

(٤) نفسه ١٣٧ .

(٥) الوافي بالوفيات ٤ / ٥٩ - ٦٠ ، وأعيان العصر ٥ / ٢٨٥ .

وَاسْأَلْ مَوَاهِبَهُمْ لِلْعَيْنِ بَعْضَ كَرِي
 عَسَائِ أَنْ يَهَيُّوا لِي بَعْضَ مَا نَهَيُّوا
 وَلَطْفِ الْقَوْلِ ، لَا تَسْأَمْ مُرَاجَعَةً
 وَأَشْكُ الْهَوَى وَالنَّوَى ، قَدْ يَنْجَحُ الطَّلَبُ
 عَرْضُ بِيَدِكْرِي ، فَإِنْ قَالُوا : أَتَعْرِفُهُ ؟
 فَاسْأَلْ لِي الْوَصْلَ ، وَأَنْكِرْنِي ، إِذَا غَضِبُوا
 ذَكَرَهُمْو بِلَيَالٍ قَدْ مَضَّتْ بِهِمْو
 وَهُمْ نُجُومِي بِهَا ، لَا السَّبْعَةُ الشُّهُبِ

والمعنى فى هذه الأبيات مشهور ، تداوله الشعراء من قبل الصفدى ، وقد أشار إلى ذلك ، وبين أصل المعنى (١) .

٢ - المدح السياسى والاجتماعى : وقد قسمه الدكتور ياسين الأيوبى نوعين (٢) :

أحدهما المدح المناقبى ، وعرفه بقوله : « هو الذى أتجه به الشعراء نحو قيم الناس ، والمجتمع ، والأفراد من أعيان ، وأصدقاء وشيم خلقية مأثورة » ، وجدير بالذكر أن الصفدى قد سمى هذا النوع « المدح الموجه » (٣) ، وهو تعريف لا بأس به ، وأفضل من تعريف الأيوبى لأن المناقب شركة فى كل أنواع المدح ، لا يختص بها نوع دون آخر ، وفى رأى أن أفضل تسمية لهذا النوع من المدح « المدح التصويرى » ذلك لأن الشاعر يصور الممدوح فى صورة متفردة ، يبين فيها ملامح الوجه ، وتركيب الجسم ، ولوازم الحركة ، وطريقة السلوك ، والحالة النفسية والخلقية ، والمهنية ، بحيث لو سمع شخص هذا الوصف ، وكان يعرف الممدوح معرفة شخصية لعرف أنه المقصود به ، وإن لم يُذكر له اسمه ، فهو أشبه بالصورة

(١) الوافى بالوفيات ٢ / ٥٥ - ٥٦ ، من الشعراء الذين ألتوا به الوأواء الدمشقى ، وأصل المعنى لعمر بن أبى ربيعة فى قوله :

فَأَتَتْهُ طَبِئَةٌ عَالِمَةٌ تَمْرِيحُ الْجِدِّ مِرَازًا بِاللَعِبِ
 تُغْلِظُ الْقَوْلَ إِذَا لَأَتْ لَهَا وَتَرَاحَى عِنْدَ سَوْرَاتِ الْعَضْبِ

(٢) آفاق الشعر العربى ١٠٤ - ١٠٧ .

(٣) الروض الباسم « مخطوط تونس » وكل إحالة هنا عليه ٦٠ / ب .

المرسومة ، أو « الفوتوجرافية » للممدوح ، يندر أن تتشابه مع غيرها ، ويستحيل تطابقها ، ولم يظهر هذا النوع من المدح إلا في العصور المتأخرة ، وبرع فيه الصفدى بصفة خاصة .

والآخر : المدح السياسى ، وعرفه بقوله : « هو غزل من نوع آخر ينظمه الشاعر فى محاسن الممدوح ، وأوصافه ، ومنجزاته الاجتماعية ، والدينية ، والعسكرية ، وأكثر ما يكون فى الملوك ، والأمراء ، والقواد ، والقضاة ، من ذوى النفوذ ، وتقرير المصير على مختلف الصعد إن غالبية المدح التى قيلت فى الملوك متشابهة ، فيما بينها ، ولا سبيل إلى تمييزها إلا بشيء من المعانى الشكلية التى تعود للحسب ، والنسب ، وبعض الأحداث الواقعة فى عهده » ، وقد نظم الصفدى فى النوعين .

فمن النوع الأول :

كتب إلى أثير الدين أبي حيان (١) :

لَوْ كُنْتُ أَمَلِكُ مِنْ ذَهْرِي جَنَاحَيْنِ لَطِرْتُ ، لِكِنَّهُ فَيْكُمْ جَنَى حَتَّى
يَا سَادَةَ ، نِلْتُ فِي مِصْرٍ بِهِمْ شَرْفًا أَزْفَى بِهِ شَرْفًا تَنَأَى عَنِ الْعَيْنِ
وَإِنْ جَرَى لَسَمَا كَيَوَانَ ذِكْرُو عَلَا أَحَلَّنِي فَضْلُهُمْ فَوْقَ السَّمَائِينَ
وَلَيْسَ غَيْرُ أَثِيرِ الدِّينِ أَثَلُّهُ فَسَادَ مَا شَادَ لِي حَقًّا بِلَا مَنِينِ
حَبِيرٌ ، وَلَوْ قُلْتُ : إِنَّ الْبَاءَ رُبِّيْهَا مِنْ قَبْلِ ، صَدَقَكَ الْأَقْوَامُ فِي ذَيْنِ
أَحْيَا عُلُومًا أَمَاتَ الدَّهْرُ أَكْثَرَهَا مُذْ جُلِدَتْ خُلِدَتْ بَيْنَ دَفْنَيْنِ
إلى آخر الأبيات التى يبين فيها ما شهر به أبو حيان من تدريس كتاب سيبويه ، وتفرد به بالعلوم ، فى عصره ... (٢) .

ومن النوع الثانى : قال فى مدح الملك الناصر محمد بن قلاوون (٣) :

بِعِزِّ نَصْرِكَ أَضْحَى الدَّهْرُ يَتَسَيَّمُ وَعَنْ رَعَايَاكَ وَلى الظُّلْمِ ، وَالظُّلْمِ

(١) أعيان العصر ٥ / ٣٣٧ .

(٢) راجع ما وصف به ابن سيد الناس فى (أعيان العصر ٥ / ٢٢٣) ، وابن القيسرانى فى (أعيان

العصر ٥ / ٥٥٧) ..

(٣) نفسه ٥ / ١٠٢ .

يَا نَاصِرَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَيَا مَلِكًا ذَلَّتْ لِعِرْزَتِهِ فِي أَرْضِهَا الْأُمَّمُ
أَصْبَحَتْ سُلْطَانَ أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً سَارَتْ بِأَنْبَائِكَ الْوَحَاذَةُ الرُّسْمُ
ويستمر في قصيدته فيبين سعى الناس في خدمته ، وأن الملوك تخاف بأسه ،
والأسود تخشاه ، ثم يصفه بالكرم ، والحلم ...

ثانيا : الرثاء :

وهو من الأغراض القديمة ، بل لعلّه أقدم أغراض الشعر مطلقا^(١) ، وهو أكثر
أغراض الشعر صدق عاطفة ، وحرارة إحساس ؛ لأنه في الغالب يظهر عجز الإنسان
أمام غلبة الموت ، ويعتبر عن لوعة الألم أمام مصيبة الفقد ، وشدة الحزن لفراق
الأحباب ، وتنوعت موضوعاته ، بحسب الأحوال ، والظروف ، فمن رثاء العظماء ،
إلى رثاء الأهل ، والأصحاب ، إلى رثاء الدول والممالك ، وكان للصفدى دوواين
كاملة في الرثاء - فقد سبق أنّ بينت أنّ له كتاب « ساجعات الغصن الرطيب » الذي
جمع فيه مراثي شيخه نجم الدين الصفدى ، ولما مات أخوه إبراهيم في سنة ٧٤٢ هـ ،
رثاه بقصائد ومقاطع كثيرة^(٢) ، ذكر منها قصيدة ، و ٢٦ مقطوعة ، وأول قصيدته :

إِذَا لَمْ يَذُبْ إِنْسَانُ عَيْنِي ، وَأَجْفَانِي عَلَيْكَ فَمَا أَقْسَى فُؤَادِي ، وَأَجْفَانِي
رَحَلْتُ بِرَعْمِي يَا أَحْيَى ، وَتَرَكْتَنِي وَجِيدًا أَقَاسِي فِيكَ أَحْزَابَ أَحْزَانِي
وَحَلَّ بِكَ الْأَمْرُ الَّذِي جَلَّ خَطْبُهُ لَقَدْ بَلَّ أَرْذَانِي بِدَمْعِي ، وَأَرْذَانِي

وإنك لتحس بهذا الحزن العميق الذي يفتت الأكبدا ، ويقطع القلوب ، وإنك
لتحس بأنّ الجناس في هذه الأبيات وظف الكلمات لإثراء المعاني في تصوير الأسى
الذي يُفقد المرء أترانه ؛ ويفقده الإحساس بتمايز الأشياء ، فقد تساوى الموت
والحياة ، والتقت الأحزاب والأحزان ، وتعاونت الأردن والأرداء .

وليس من أهداف هذا البحث دراسة شعر الصفدى بعامة ، ولا الرثاء بخاصة ؛
بل اكتفى هنا بالإشارة إلى أنّ الرثاء عنده موضوع خصب لدراسة علمية جيّدة ، وقد

(١) من الطرائف أنّ مؤرخي العرب يروون أبياتا رثى فيها سيدنا آدم عليه السلام ابنه هابيل ، لما قتله
أخوه قابيل ، ويروون الخبر عن الإمام على - رضى الله عنه - ومما لا شك فيه أنّه من وضع القصّاص ،
والوعاظ . راجع : الكامل فى التاريخ ١ / ٢٧ .

(٢) راجع : الوافى بالوفيات ٥ / ٣٣٢ - ٣٣٧ .

سبق الحديث عن رثائه موتى الطاعون المعروف بالطاعون الأسود الذى اجتاحت البلاد فى سنة ٧٤٩ هـ ، وذكرت ما امتاز به رثاؤه من الدقة التصويرية ^(١) ، وبلاغة التعبير ، وعندما دخل الطاعون صفا قال ^(٢) :

« أجنى عليها الذى أجنى ، فما ترك بها أحداً من الأهل ، والمعارف حتى اجتحفه سيله الجارف ، فكم من صاحب جاءنا ناعيه ، ودعاه إلى البلى منه داعيه ، فقال المملوك :

لِمَ افْتَرَسْتَ صِحَابِي يَا عَامَ تَشَعُّ اِزْبَعِينَا ؟
مَا كُنْتُ ، وَاللَّهِ تَشَعُّا بَلْ كُنْتُ سَبْعًا يَقِينَا

ويذكر أكثر من عشر مقاطيع فى وصف الطاعون ، وينهى مقاله بوصف الحال فى دمشق « وأفرط الأمر ؛ حتى كادت دمشق تخلو من أربعة أركانها ، وعمت الوحشة ، ومحا الأنس من كل دار نفسه ... » .

ورثاؤه للمدن التى حَرَبَهَا الطاعون ، وخيم عليها الخراب ناطق بحرقة الفقد ، ولسع النار التى ألهبها الدمار ، وأتاك لتسمع فى شعره أنين الثكالى ، وبكاءهن يبعثان فى كل بيت ، ودار ، وانظر كيف واجه الشاعر الذى اعتاد الصبر وتحمل الشدائد هذا المصاب الفادح بعتاب يائس ، وسؤال مكلم :

لِمَ افترست صحابى يا عام تسع اربعين ؟

ومن سمات الرثاء عند الصفىدى - كما فى مدحه - ما يمكن أن نسماه - أيضا - « الرثاء التصويرى » الذى يرسم فيه صورة للفقيد تبين سمات الوجه ، وشكل الجسم ، والصفات الخلقية والخلقية والنفسية ، وغيرها من العلامات التى تميز فردا من فرد ، واقرأ رثاءه لابن ريان ^(٣) ، الذى كان يقوم الليل ، ويركع قبل الفجر قريبا من

(١) راجع صفحة ٣١١ من هذا الكتاب .

(٢) ديوان مراسلات الصفىدى « مخطوط دار الكتب المصرية ٤٣ » .

(٣) سليمان بن أبى الحسن ، جمال الدين (٦٦٣ - ٧٤٩ هـ) ناظر الجيش فى حلب ، عابد ،

زاهد ، مولع بكتابة القرآن الكريم بخطه الجميل ، وتذهيبه .

انظر : أعيان العصر ٢ / ٤٢٦ ، والوفى بالوفيات ١٥ / ٣٦٧ ، وتذكرة النبيه ٣ / ١٢٥ ، والدرر

الكامنة ٢ / ١٤٥ ، والمنهل الصافى ٦ / ١٧ .

عشرين ركعة ، وله في كل أسبوع ختمة ، يقرأها هو وأولاده ، ويصوم في غير رمضان ، قال (١) :

مَنْ لِلظَّلَامِ إِذَا نَامَ الْأَنَامُ غَدَا

« يَقَطُّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا ، وَقَوَانَا ؟ »
 وَمَنْ لِمِخْرَابِكَ الرَّاكَبِي ، فَلَيْسَ يَرَى
 مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ فِيهِ قَطُّ إِنْسَانًا ؟
 كَمْ قَدْ حَتَمْتَ كِتَابَ اللَّهِ مُتَعِظًا
 وَفِي تَدْبِيرِهِ كَمْ رُحْتَ وَلَهَانَا
 وَكَمْ حَثَّتِ الْخَطَا نَحْوَ الصَّلَاةِ لِأَجْدِ
 لِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ فِي الْأَسْحَارِ عَجَلَانَا
 تَوَاطَبَ الصَّوْمِ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، وَفِي آلِ
 إِثْنَيْنِ ، حَتَّى لَقَدْ أَهْمَيْتِ حَمَصَانَا
 وَكَمْ مَمَالِكٍ قَدْ دَبَّرْتَ حَوَزَتَهَا
 فَكُنْتُ خَيْرَ وَزِيرٍ ، قَطُّ مَا خَانَا
 وَتَسْتَقِيمُ بِكَ الْأَحْوَالُ مَا شِئْتِ
 حَتَّى تَفِيضَ بِكُمْ الْأَمْوَالُ طُوفَانَا
 لِلهِ دُرُوكَ ، كَمْ جُمَلْتُ مَدْرَسَةً
 وَبِالْكِتَابَةِ كَمْ شَرَفْتُ دِيْوَانَا
 فَكُنْتُ فِي الْجُودِ غَيْثًا ، وَالْهُدَى عَلَمًا
 وَفِي الْحِجَابِ حُجَّةً ، وَالْعِلْمِ نَهْلَانَا

والقصيدة طويلة ، وهي في جملتها ترسم بصمات هذه الشخصية المتفردة في الأمانة ، والعبادة .

(١) أعيان العصر ٢ / ٤٢٨ - ٤٣٠ ، والشطر الثاني من البيت الأول مضمن من رثاء حسان بن

ثابت لعثمان بن عفان ، وأوله :

« ضَعُّوْا بِأَشْمَطِ عُتُوَانِ الشُّجُوْدِ بِهِ »

ثالثا : الهجاء :

لم أجد له شعرا في الهجاء ؛ ولا يُتَوَقَّعُ منه هجاء فكيف يكون هجاءً من « كان إليه المنتهى في مكارم الأخلاق ومحاسن الشئيم ؟ » (١) ، وكيف يكون سبًا لقاتنا من كان عَفَّ اللسان ، لم يتعرَّض ، قط لأعراض الناس ، ولم يجرح شخصا ، ولو كان يستحق التجريح ، وقد مرَّ بنا في هذه الدراسة (٢) أن سيف الدين قزائبا أراد انتزاع مملوكه مراد ، وتقديمه هدية لأستاذه سيف الدين أرغون شاه ، وهو مسلك عدواني ، يستحقان عليه الهجاء ، ولو كان في مكانه شاعر آخر لأوسعهما هجوا وذما ، ولكن الصفدى طلب من رئيسه في الديوان ردَّ مملوكه ، دون أن يتعرَّض لأحد من الناس بما يسىء .

لا تخلو الحياة مما يكدر صفوها ، وتمر بالإنسان ظروف تؤلمه ، وتوجب التفريح عن النفس بالشكوى ، وقد انتهج الصفدى طريقا اختصَّ بها ، وسلك دربا لم يسلكه غيره من الشعراء ، فإذا حزَّبه أمر ، واذلَّهَمَّ عليه خَطْبُ لجأ إلى الصبر ، واستبدل بالهجاء « صورة مصير الظالم » يعرضها دون تَشَفُّ ، أو إظهار للفرح بما أصابه ؛ وإنما يقدِّمها عظة لمن يريد أن يتعظَّ ؛ قال عن أرغون شاه (٣) : « إِنَّه جَبَّارٌ سَقَّك ، طالب لثأره دَرَّك ، يده والسيف يمتشقه ، وغيظه يؤدِّيه إلى العطب ، وحُلُقُه ، لا يشرب الماء إلَّا من قليب دم ، ولا يتنَّسم الهواء إلَّا بِشَمِّ سَمِّ ، ومع ذلك إذا ظهر له الحق رجع في الحال ، وندم على ما قَرَّط منه واستحال لكنَّه تروح في ذلك الغضب أرواح ، وتُجَبُّ مذاكير ، وتُقَطَّعُ أخراح .

وكان في دمشق زمن الطاعون ، فما طعن على عادة الملوك ، وإنما طعن بالسيف الذى يذر الدم وهو مسفوك .

وقلت أنا فيه :

تَعَجَّبْتُ مِنْ أَرْغُونَ شَاهٍ وَطَيْبِيهِ أَلِّ لِيذَى كَانَ فِيهِ لَا يَفِيقُ ، وَلَا يَبْعَى
وَمَا زَالَ فِي سُكْرِ النَّيَابَةِ طَافِحًا إِلَى جِينِ غَاصَّتْ نَفْسُهُ فِي الْمُتَّبِعِ

(١) الدرر الكامنة ٢ / ٨٨ .

(٢) راجع صفحة ٨٧ .

(٣) أعيان العصر ١ / ٤٦١ - ٤٦٢ .

وكان هذا النهج دأبه مع الملوك ، والأمراء ، لا يهجو ، ولا يسب ، وإنما يسوق
نهايته بما يوحي بانتقام الله ؟ من كل ظالم وأن عاقبة البغي وخيمة .
وأما إذا كان الأذى يأتيه من الأهل والأصحاب اكتفى بدم الزمان ، والإخوان ،
دون فحش ، أو تعريض ، يقول (١) :

إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ دَهْرِ مُيْتٍ بِهِ عَلَيَّ أَحْشَاؤُهُ بِالْحَقْدِ تَضَطَّرِمُ
مُقْطَبٍ وَجْهَهُ إِلَّا إِذَا طَلَبْتُ نَفْسِي صَدِيقَ وَفَاءٍ ظَلَّ يَتَسَيَّمُ
وَعِنْدَمَا يَضِيقُ بِهِ الْأَمْرُ ، يَصِيحُ (٢) :

أَيَا مَنْ يُنَادِي فِي الشَّدَائِدِ صَاحِبًا
أ تَطْلُبُ رِيًّا مِنْ سَرَابِ السَّرَابِخِ ؟
فَدَيْتُكَ ، هَلْ عِنْدَ الْأَصَمِّ إِجَابَةٌ
وَلَوْ كُنْتُ تَزَقَّى فِي صَوَارِي الصَّوَارِخِ ؟

وكرهيته للهجاء نابع من تصوّره لوظيفة الشعر في حياة الأديب ، وهو ما صوّره
بقوله (٣) :

لَا تُبْرِزِ النُّظْمَ فِي هَجْوٍ فَإِنَّ لِمَنْ أَبْدَى مَعَانِيهِ فِي الْأَوْزَانِ أَوْزَارًا
وَصِيفَ زَمَانَ الصُّبَّانِ إِنْ كُنْتَ نِلْتَ بِهِ مَعَ الْأَجْبَةِ فِي الْأَوْطَانِ أَوْطَارًا

فالشعر ، عنده ليس وسيلة لسب الناس ، والتشهير بهم ، فلم يسلم من المعاصي
إنسان ، والشاعر إنسان له عيوبه ، وأوزاره وحقيق به أن يعذر الناس إن أخطأوا ، وأن
يجعل شعره وقتّه لتصوير العواطف النبيلة ، ومشاعر الانتماء إلى الجماعة ، والأنس
بهم ، والسعادة في التعاون معهم على تحقيق الآمال .

(١) الروض الناصم ٦ / ب .

(٢) الروض الباسم ٧ / أ .

السرابخ : الأرض الواسعة ، البعيدة ، أو هي البضلة التي لا يهتدى فيها السالك إلى طريق . انظر :
اللسان « سربخ » ٣ / ٢٤ .

والصّوارخ : لعله يريد سفن النجدة والإغاثة .

(٣) نفسه ٦٥ / ب .

وكثيرا ما يفصل الوحدة على مخالطة الناس (١) :

وَجَدْتُ فِي عِشْرَةِ صَخْبِي أَدَى لَمَّا لَزِمْتُ الْبَيْتَ ، فِي الْوَقْتِ زَالَ
يَا عَجَبًا مِنْ أَشْعِرِيَّ عَدَا يَحْمَدُ رَأَى النَّاسِ فِي الْإِعْتِرَالِ

ولهذا عقد أبوابا في كتابه «الروض الباسم» للزهد، والصبر، والقناعة، والوحدة والتخلّي، وذم الزمان والإخوان، ومكارم الأخلاق، والأمر بالجدود، والعفة والتقى، والحزم وعلو الهمة، والحكم والأمثال، والتشوق ودوام العهد، وغيرها من الأبواب، ولا نجد فيه بابا للهجاء.

فمما قاله في الزهد (٢) :

أَدْعُوكَ يَا مُوجِدَ الْأَشْيَاءِ مِنْ عَدَمٍ إِذَا عَرَضَتْ يَتَوْمَ الْحَشْرِ لِي عَمَلًا
وَصَانِعَ الْعَالَمِ الْعُلُوبِيِّ ، وَالْأَرْضِيِّ
فَلَا تُقَدِّرْ لَهُ طُولًا عَلَى عَرِضِي
وقال في الصبر (٣) .

لَوْ يَعْلَمُ الدَّهْرُ مِنِّي أَنْ مُضْطَبَّرِي
كَانَتْ جِيَادُ الرَّزَايَا كُلَّمَا اطَّرَدَتْ
يَغْتَالُ صَرْفَ اللَّيَالِي ، ثُمَّ يَفْتَرِسُ
تَحُومٌ حَوْلَ رُبُوعِي ، ثُمَّ تَنْعَكِسُ
وقال في القناعة (٤) .

إِذَا مَلَكَ الْإِنْسَانُ ثَوْبَ قَنَاعَةٍ
وَلَمْ يَخْشَ مِنْ فَقْرٍ رَمَتْهُ سِهَامُهُ
تَرَشَّفَ كَأَسِ الْعِزِّ فِي النَّاسِ سَابِغَةً
لَأَنَّ عَلَيْهِ نِعْمَةَ اللَّهِ سَابِغَةً
ومن طريف ما أورده في الوحدة قوله (٥) :

مَنْ لَمْ يُعَايِنِ مِنْ بَاطِنِي سِمَةً
لَمْ أَلْقَ لِي فِي ضَمِيرِهِ مِقَّةً
وَلَمْ يُشَاهِدْ مِنْ ظَاهِرِي سَمْتًا
وَلَمْ أَصَادِفْ لِي عِنْدَهُ مَقْتًا
رابعا : الغزل :

قسم الصفدى غزله على الفصول الآتية : العفة والتقى ، والمحبة ، والتشوق ، ودوام العهد ، والسهر وزيارة الخيال والحبيب ، وفي الدموع ، وفي بكاء الحبيب ،

(٢) الروض الباسم ٢ / أ .

(١) الروض الباسم ٦ / أ .

(٣) نفسه ٣ / ب .

(٤) نفسه ٥ / أ .

(٥) الروض الباسم ٦ / ب .

وفى العذال والوشاة ، وفى العتاب ، وفى الاعتذار ، وفى السلوان ، وفى الملاحاة ،
وفى الجوارى ، وفى الغلمان ، وفى العناق والتقبيل .

فما قاله فى العفة والتقى (١) :

بِنَفْسِي مَنْ إِذَا اذَكَرَ اَكْتِبَابِي وَأَنْسَى لَا أَرَى الْأَوْزَارَ زَارَا
يَبِيْتُ ، وَلِلثَّقَى حَرَسٌ عَلَيْهِ وَلى فَإِذَا رَأَى الْأَشْحَارَ حَارَا
فَلِي قَلْبٌ إِذَا ذَكَرَ اللَّيَالِي أَلَّ بِي نِلْنَا بِهَا الْأَوْطَارَ طَارَا

ومما قاله فى المحبة (٢) :

تَمَّتْ مِنْ وَجْهِ الْحَبِيبِ بِنَظْرَةٍ فَأَصْبَحَ فِي عِطْفِي هِرَّةٌ نَشْوَانِ
فَلَا تُنْكِرُوا سُكْرِي بِرُؤْيَاهُ إِنِّي سَقَنْتِي حُمَيَّا الْحُبِّ رَاحَةً إِنْسَانِي

ومما قاله فى التشوق وذكر العهد (٣) :

تَدَكَّرْتُ عَيْشًا مَرَّ حُلُوهَا بِكُمْ ، فَهَلْ لِأَيَّامِنَا بِلِكَ الدَّوَاهِبِ وَاهِبُ ؟
وَمَا انصَرَفَتْ أَمَالُ نَفْسِي لِغَيْرِكُمْ وَلَا أَنَا عَنْ هَذِي الرِّغَائِبِ غَائِبُ
سَأَصْبِرُ كَرَاهًا فِي الْهَوَى غَيْرَ طَائِعٍ لَعَلَّ زَمَانِي بِالْحَبَابِيبِ آيِبُ

ومما قاله فى السهر (٤) :

أَتَانِي وَقَدْ أَوْدَى الشَّهَادُ بِنَاطِرِي يُمَزَّقُ جُنْحَ اللَّيْلِ بَارِقٌ فِيهِ
فَقُلْتُ لَهُ : يَا طَيِّبَ الْأَصْلِ هَكَذَا أَخَذَتِ الْكَرَى مِنِّي ، وَعَيْنِي فِيهِ

ومما قاله فى الدموع (٥) :

أَرَادَ الْعَمْسَامُ إِذَا مَا هَمَى يُعَبِّرُ عَنْ عِبْرَتِي ، وَأَنْتِحَابِي
فَجَاءَتْ جُفُونِي مِنْ دَمْعِهَا بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِ السَّحَابِ

(٢) نفسه ١١ / ب .

(١) نفسه ٨ / أ .

(٣) الروض الباسم ١٣ / أ .

(٤) نفسه « مخطوط أياصوفيا » بخط المؤلف ، وهو غير مرقم .

(٥) الروض الباسم ١٦ / أ .

ومما قاله فى بكاء الحبيب (١) :

لا تَحْسَبُوا أَنَّ حَبِيبِي بَكَى لى رَحْمَةً ، يَا بُعْدَ مَا تَحْسَبُونَ
لَمْ يَعْكِ لى مِنْ رِقَّةٍ ؛ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَشْقَى سُيُوفَ الْجُفُونِ
ومما قاله فى العذال والوشاة (٢) :

الَّلَحَّ عَدُولِي فِي هَوَاهُ ، وَزَادَ فِي
مَلَامِي ؛ فَقُلْتُ : اخْتَلَّ عَلَى غَيْرِ مَسْمُوعِي
فَلَمْ يَذَرِ مِنْ فَرْطِ الْوُلُوعِ بِذِكْرِهِ
مُصِيبَتُهُ ؛ حَتَّى تَعَشَّقَهُ مَعِي

ومما قال فى العتاب (٣) :

تَلَطَّفَ بِي إِلَى أَنْ حَارَ قَلْبِي وَلَمَّا صَارَ طَوَّعَ يَدَيْهِ خَائَةً
فَقُلْتُ ، وَقَدْ بَدَأَ لى فِي عِتَابِ : فَذَيْتُكَ ، لَا أَمَانَ ، وَلَا أَمَانَةَ ؟

ومما قال فى الاعتذار ، وكتب بها إلى صاحب عمل وليمة ، ولم يتفق له
حضورها (٤) :

يَا مَنْ إِذَا مَا أَتَاهُ أَهْلُ الْمَوَدَّةِ أَوْلَمَ
أَنَا مُجِيبُكَ حَقًّا إِنْ كُنْتُ فِي الْقَوْمِ أَوْ لَمْ

ومما قال فى السلوان (٥) :

قُولُوا لَهُ : رُدُّ النَّفَارِ إِلَى الطَّبَا وَالْمَيْلَ فَرَقَهُ عَلَى الْأَعْصَانِ
أَوْ هَاتِ غَيْرِي لِلتَّجْنِي وَالْجَفَا فَأَنَا اسْتَجَرْتُ بِذِمَّةِ السَّلْوَانِ
ومما قاله فى الملاحاة (٦) :

يَقُولُ لى : شَبَّهْتَ غُضْنَ الثَّقَا بِقَامَتِي . وَهَوَّ لَهَا سَاجِدُ

(١) نفسه ١٧ / ب .

(٢) نفسه ١٩ / أ .

(٣) نفسه ٢١ / أ .

(٤) الروض الباسم ٢١ / ب .

(٥) نفسه ٢٢ / ب .

(٦) نفسه ٢٣ / أ .

وَقُلْتُ : وَجْهِي مِثْلُ بَدْرِ الدُّجَا فِي تَمِّهِ . وَهُوَ لَهُ حَاسِدُ
وَمَا كَفَى أُنْكَ شَبَّهْتَنِي بِالظُّبِيِّ . وَهُوَ النَّافِرُ الشَّارِدُ
حَتَّى تَقُولَ : الشَّعْرُ مِثْلُ الدُّجَا وَاللَّهُ ، هَذَا طَمَعُ زَائِدُ

ومما قاله في الجوارى ، قال في مليحة في حاجبها أثر (١) :

حَوْرَاءُ قَدْ زَانَهَا فِي حَدِّهَا أَثَرٌ وَلَيْسَ يَسْلَمُ مِنْ ذَا صَفْحَةِ الْقَمَرِ
وَإِذَا تَرَدَّدَ بَيْنَ الْعَيْنِ ، وَالْأَثَرِ

ومما قاله في الغلمان ، قال في مليح نقاش (٢) :

أَحْبَبْتُ نَقَّاشَ صَاغَةَ شَهْدَتْ لَهُ بِفَرْطِ الْمَحَاسِنِ الْحُورُ
يَصِيدُ قَلْبَ الْوَرَى بِنَاطِرِهِ فَجَفْنُهُ كَاسِرٌ ، وَمَكْشُورُ
ومما قاله في العناق والتقبيل (٣) :

أَفْدَى الَّذِي تَيَّمَنِي وَلِلصُّنَى أَسْلَمَنِي
لَوْ مِتُّ ، وَهُوَ حَاضِرِي عِشْتُ إِذَا قَبَّلَنِي

خامسا : الوصف :

شارك الصفدى شعراء عصره في نظم كثير من الأوصاف البشرية ، والحيوانية ،
والطبيعية ، وقسم وصفه على الأبواب الآتية : في الوجوه ، في العيون ، في الخال ،
في الثغر في الخال ، في هيف القوام ، في الشعر ، في العذار ، في مجالس الأُنس
والسقاة والندامى ، فيما يكتب على الآلات ، في الهدايا ، في وصف الخيل ، في
الليل والقمر والنجوم ، في الرياض ، في الماء ، في المنازل والطرق .

فمما قاله في الوجوه (٤) :

أَسْأَلُ عَنْ أَرْضِ أَلْفَتْ رُبُوعَهَا وَفِيهَا حَبِيبٌ نَلْتُ مِنْهُ مُرَادِي
فَقُلْتُ : أَنَا أَدْرَى بِشَمْسِ بِلَادِي مَتَى تُظَلِّمُ بِلَاهَا بَوَجْهِهِ

(١) الروض الباسم ٢٥ / ب .

(٢) نفسه ٢٨ / ب .

(٣) نفسه ٤٦ / أ .

(٤) الروض الباسم ٢٩ / ب .

ومما قاله في العيون (١) :

السَّيْفُ قَالَ لِطَرَفِهِ اللَّهُ
وَرِيقُهُ اعْتَرَفَ الطُّلَا
وَأَنَا الْفَقِيرُ لِيُوضِلِهِ

ومما قاله في الخال على الفم (٢) :

بِثَغْرِهِ خَالَ نَدُّ
كَحَاتِمٍ مِنْ عَقِيقٍ

ومما قاله في الثغر (٣) :

رَشَفْتُ رِيْقَكَ حُلُوًا
وَسَوْفَ أَخْطِي بِوَضِلٍ

وفي البيتين الآتيين ، تبدو شاعرية الصفدى نقيّة مبدعة ، مع خفاء الصنعة في

التورية الرائعة ، قال (٤) :

يَا قَلْبُ ، إِنَّ زَادَ الظُّلْمَا
إِنِّي لِأَعْرِفُ مِنْهَلًا

ومما قاله في هيف القوام ، ودقة الخصر (٥) :

بِأَبِي أَهْيَفٌ تَعَلَّمْ مِنْهُ
مَا تَثْنَى عِطْفَاهُ إِلَّا وَأَمْسَتْ
وَحَكَاهُ الْخَطِيُّ لُونَا ، وَلِينَا
فِي الشَّعْرِ (٦) :

لَوْلَا شَفَاعَةُ شَعْرِهَا فِي صَبِّهَا
مَا خَفَّفَتْ بِالْوَضِلِ مِنْهُ سَقَامَا

(١) نفسه ٣٢ / أ .

(٢) نفسه ٣٦ / ب .

(٣) الروض الباسم ٣٤ / أ .

(٤) نفسه ٣٤ / أ .

(٥) نفسه ٤٠ / ب .

(٦) نفسه ٤٣ / ب .

لَكِنْ تَنَازَلَ فِي الشُّفَاعَةِ عِنْدَهَا وَعَدَا عَلَى أَقْدَامِهَا يَتَرَامَى
ومما قاله في العذار (١) :

عِدَارُكَ وَالطَّرْفُ يَا قَاتِلِي يُحَاكِيهَا الْأَسُّ ، وَالنُّوجِسُ
وَقَدْ صَارَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةً فَهَذَا يَدِبُّ ، وَذَا يَنْعُسُ
ومما قاله في مجالس الأُنس والسقاة والندامى (٢) :

كُتُوسُ الْمُدَامِ تُحِبُّ الصِّفَا فَكُنْ لِتَصَاوِيرِهَا مُبْطِلًا
وَدَعَّهَا سَوَاجِحٌ مِنْ نَفْسِهَا فَأَحْسِنُ مَا دُهَبَتْ بِالطَّلَا
ومما قاله فيما يكتب على الآلات (٣) :

قال فيما كتب على كُزْبِي مصحف ، من أبيات :
حَمَلْتُ عَلَى صَغْفَى الَّذِي كَلِمَاتُهُ لِهَيْبَتِهَا يَصْدَعُ الْجَبَلُ الرَّاسِي
تَدَاخَلَ مَنِيَّ الْبَعْضُ فِي الْبَعْضِ خَيْفَةً لِأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَضْحَى عَلَى رَاسِي
ومما قاله في هديّة شعر ، بعث بها إليه ابن نباتة (٤) :

أَيَا ابْنَ نُبَاتِيَةِ ، أَهْدَيْتَ شِعْرًا نَصِيْبِي سُكَّرَ مِنْهُ ، وَسُكَّرُ
يَقُوتُ الْغَيْثِ عَدَا وَهُوَ حُلُوٌّ فَشِعْرُكَ كَيْفَ مَا حَاوَلْتَ قَطْرُ
ومما قاله في وصف الخيل ، قال في حصان أبلق (٥) :

تَحَالَهُ فَلَكَا قَدْ سَارَ مُحْتَوِيًا عَلَى النَّهَارِ ، وَجُنْحِ اللَّيْلِ فِي نَسَقِ
فَكَمْ لِسُنْبُكِيهِ نَجْمٌ إِذَا قَرَعَ الصِّدْفَا ، وَكَمْ مِنْ هِلَالٍ مِنْهُ فِي الطَّرِيقِ
ومما قاله في الليل والقمر والنجوم (٦) :

كُلَّمَا مَدَّتِ النُّجُومُ شِبَاكَا مَنَعَ الصُّبْحُ أَنْ تُصَادَ الْغَزَالَةُ
أَوْ تَبَدَّتْ فِيهَا طَلَائِعُ فَجْرِ سَلَّ بَرَقُ الدُّجَا عَلَيْهَا نِصَالُهُ

(١) الروض الباسم « مخطوط أيا صوفيا » ، ٥٨ / ب .

(٢) نفسه ٧٨ / أ .

(٣) نفسه ٩١ / ب .

(٤) نفسه ٨٦ / ب .

(٥) الروض الباسم ٥٣ / ب .

(٦) نفسه ٤٥ / ب .

ومما قاله في الرياض (١) :

لِلهِ رَوْضٌ شَقَقَ الْأَكْمَامَ مُذْ
وَكَاثِمًا الْأَطْيَارُ فَوْقَ غُضُونِهَا
جَرَّتْ بِهِ أَذْيَالَهَا النَّسَمَاتُ
سَطَرٌ عَلَى أَلْفَاتِهِ هَمَزَاتُ
ومما قاله في الماء (٢) :

قَدْ حَارَبَ الرِّيحُ نَيْلُ مِضْرٍ
فَجَاءَتِ الرِّيحُ بِانزِعَاجٍ
وَعَصْرٌ مِنْ غَيْظِهِ الْأَصَابِعِ
كَشَرَ مِنْ مَوْجِهِ الْأَصَالِغِ
ومما قاله في المنازل والطرفقات (٣) :

قال يصف أهرام مصر :

قَدْ ضَلَّ فِي خَبْرِ الْأَهْرَامِ عَقْلُ قَتِي
وَلَيْسَ يَغْلَمُ مِنْهَا غَيْرَ أُبَيَّةِ
أَرَادَ تَحْقِيقَهُ فِي سَالِفِ الْحُقْبِ
شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَالِي وَلَمْ تَشِبْ
سادسا : الفخر والحماسة ومكارم الأخلاق :

وقد فرقها الصفدى في الأبواب الآتية : الأمر بالجود ، الحزم وعلو الهمة ،
مكارم الأخلاق ، الحكم والأمثال .

فمما قاله في الأمر بالجود (٤) :

لَا تَجْمَعِ الدُّيَّارَ ، وَاسْمَخِ بِهِ
مَا الدُّهْرُ نَحْوِي فَيَتَّخِذُ الْهُدَى
وَلَا تَقُلْ : كُنْ فِي جِمَى كِنْفِي
وَيَمْنَعُ الْجَمْعَ مِنَ الضَّرْفِ
ومما قاله في الحزم وعلو الهمة (٥) :

إِنْ أَنَا لَمْ أَجِدْ فِي كَسْبِ مَالٍ
وَأَذَا لَمْ أَشُدَّ خَلَّةَ خِلِّ
لَا فِتْنَاءِ الْعَلَاءِ فَكَيْفَ أَجُودُ ؟
هَاتِ قُلْ لِي بِإِلَهِ كَيْفَ أَسُودُ ؟
ومما قاله في مكارم الأخلاق (٦) :

(١) الروض الباسم ٦٤ / ب .

(٢) نفسه ٤٩ / أ .

(٣) الروض الباسم ٥٢ / ب .

(٤) نفسه ٥ / ب .

(٥) نفسه ٨ / ب .

(٦) الروض الباسم ٩ / أ .

فِي أَهْلِ مِضْرٍ مَعَانٍ مِنْ لُطْفِهِمْ تُشْتَفَادُ
نَزْدُ السِّيَادَةِ فِيهِمْ لَمَّا رَعَوْا الْجَارَ سَادُوا

ومما قاله في الحكم والأمثال (١) :

لَا تَسْعَ فِي أَمْرٍ ، وَلَا تَعْمَلْ بِهِ مَا لَمْ يَرِنُهُ لَدَيْكَ عَقْلٌ ثَانٍ
فَالشُّعْرُ مُعْتَدِلٌ بِوَزْنٍ عَرُوضِهِ وَكَذَا اغْتَدَالُ الشُّمْسِ بِالْمِيزَانِ

سابعا : أغراض مختلفة :

جارى الصفدى شعراء عصره فى النظم فى أغراضهم المختلفة ، ورتب شعره فى هذه الأبواب : الألفاظ والأحاجى ، المكاتبات ، الشعر ، المجون ، المعانى المختلفة .

الألفاظ والأحاجى : نظم فيها الصفدى كثيرا ، وألف فيها كتابه « نجم الدياتجى فى نظم الأحاجى » ولا يخلو كتاب من كتبه من ذكر بعضها ، وبخاصة « ألحان السواجع » ؛ فقد كان حريصا على ذكر ما تحاجى به هو وأصحابه ، من ذلك قوله (٢) ملغزا فى قُرْط :

أَرَأَيْتَ نَجْمًا ، قَطُّ فِي غَيْرِ السَّمَاءِ يَخْوِيهِ قَطْرٌ ؟
وَهُوَ النَّبَاتُ لَدَى الْوَرَى وَإِذَا قَلَبْتَ الْبَعْضَ قَطْرٌ

المكاتبات : لا تكاد تخلو ترجمة من تراجم أعيان العصر من مكاتبات بين الصفدى ومعارفه ، وأصدقائه ، وشيوخه ، بعضها مدح ، أو تشويق ، أو عتاب ، أو اعتذار ، أو طلب عارية ، أو شكر على هدية ، أو استدعاء إجازة ، وغير ذلك مما يكون بين الأحاب ، وفى بعضها أسئلة علمية فى النحو أو التفسير ، فمن ذلك ما كتب به إلى على بن الحسين ، زين الدين ، ابن شيخ العوينة ، السؤال شعر ، والإجابة شعر ونثر ، قال الصفدى (٣) :

أَلَا إِنَّمَا الْقُرْآنُ أَكْبَرُ مُعْجِزٍ لِأَفْضَلِ مَنْ يُهْدَى بِهِ الثَّقَلَانِ

(١) نفسه ١٠ / أ .

(٢) نفسه ٥٧ / أ .

(٣) أعيان العصر ٣ / ٣٣٧ ، والسؤال عن قوله تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأَ أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا ﴾ [سورة الكهف : ١٨ : ٧٧] ، والسؤال هو : لماذا قال : استطعما أهلها ، ولم يقل : استطعماهم ، اختصارا ؟

وَمِنْ جُمْلَةِ الإِعْجَازِ كَوْنُ اخْتِصَارِهِ بِإِجْزَالِ أَلْفَاظِهِ ، وَبَسْطِ مَعَانِيهِ
 وَلِكُنْتِي فِي الْكَهْفِ أَنْصَرْتُ آيَةً بِهَا الْفِكْرُ فِي طُولِ الرِّمَانِ عَنَانِي
 وَمَا ذَاكَ إِلَّا ﴿ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا ﴾ فَقَدْ نَرَى « اسْتَطَعْنَا هُمْ » مِثْلُهُ بَيِّنَانِ
 فَمَا الْحِكْمَةُ الْعَرَاءُ فِي وَضْعِ ظَاهِرِهِ مَكَانَ ضَمِيرٍ ؛ إِنَّ ذَاكَ لِشَانِ

الشُّعْرُ (١) : كتب الصفدى مقطوعات كثيرة عن الشعر ، وعن قدر الشاعر ، ورسائله فى المجتمع ، وما يجزّه الشعر على صاحبه وعلى الناس من شرور ، وما فيه من نكت وطرائف ، وما يعاب به قائله ... ومن ذلك قوله فى موهبة الشاعر وثقافته :

أَلَا إِنَّ فَنَّ النَّظْمِ يَحْتَاجُ رُبُّهُ إِلَى لُطْفِ ذَوْقٍ فِي مَجَالِ مَجَازِهِ
 وَكَسْبِ عُلُومٍ فِي عُلُومٍ إِذَا أَتَى إِلَى بَابِهِ أَلْقَتْ حِجَابَ حِجَازِهِ

المجون (٢) : نظم فيه الصفدى كثيرا جدًا ، وهى ظاهرة فاشية فى شعراء هذا العصر ، ومثقفيه ، وعلمائه ، بعامة ، وعند صلحائه ، وزهاده ، بخاصة ، وربما كانوا يجدون فيه نوعا من التنفيس عن المشاعر المكبوتة ، ويستروحون به من هموم الحياة ، ومن ثقل أعباء العيش ، ولم يكن فى المجون ما يعيب الشخص ، أو يحط من قدره ، أو يسىء إلى خُلُقِهِ ، أو يشكك فى أمانته ، ونزاهته ، وعدالته ، ويبدو أنّ المجون فى عصرنا شىء معيب ؛ بسبب مزاحمة المرأة للرجال ، فى جميع الأعمال ، وتواجدها فى كل مكان ، مما يضع قيودا على الرجال فى حديثهم ، ولم تكن تلك القيود موجودة فى مجتمع الرجال ، وحدهم ، حيث تنبسط أحاديثهم ، وتتنوع أسماهم ، ويتندرون على سجيّتهم ، وكان الصفدى ينظم فى المجون ، و « يستغفر الله من قول بلا عمل » ، وإنّما نظمه مجارة لأقرانه ، فمن طريف مجونه قوله ، وقد تواترت الأنباء عن سيول ومخائض فى المنوفية (٣) :

قُلْتُ لَهُ لَمَّا أَتَيْنَا إِلَى مَخَاصِيَةِ أَهْوَالِهَا صَغْبَةٌ :
 جُزْ ، لَا تَخَفْهَا . قَالَ لِي : كَيْفَ لَا أَخَافُ شَيْئًا يَصِلُ الرُّكْبَةَ ؟

(١) الروض الباسم ٦٥ / ب .

(٢) نفسه ٦٦ / ب .

(٣) نفسه ٦٦ / ب .

ومدلول الأبيات يفيد تغيرًا كبيرًا في طقس مصر ؛ إذ يبدو أنّ الأمطار كانت غزيرة في ذلك الوقت ، في حوض البحر الأبيض المتوسط بحيث كانت تحدث سيولا ، ومخائض تعوق حركة الناس ، في الطرقات ، وربما أتلفت الزروع ، وأهلكت الحيوان ، وفي كتب التاريخ كثير من أخبار السيول التي كانت تجتاح البلاد .

المعاني المختلفة : وتحت هذا العنوان أورد الصفدى مقطوعات كثيرة من شعره في معان لا تنحصر في أبوابه السابقة ، مثل : المداعبات بين الأصحاب ، والمعارضات التي يقترحها عليه الأدباء وما يكتب تقریظًا على كتاب ، وفي التهئية بمولود ، وغير ذلك .

قال (١) :

حَكَى لِي صَدِيقٌ صَادِقٌ حَالَ ظَالِمٍ بِسِيرَتِهِ الْأَيَّامَ تُصْبِحُ مُظْلِمَةً
وَقَالَ : بَنَى بِالْجَوْرِ ، لَا الْجَوْرِ قَاعَةً فَقُلْتُ : تَرَاهَا عَنْ قَلِيلٍ مُرْتَحِمَةً

وشرح توريته بقوله : « يعنى حذف الأخير منها ، فتبقى قاعا » والترخيم في قواعد النحو حذف الزائد من الاسم ، وعندما تصبح القاعة « قاعا » أى : خرابا ؛ لأنها بنيت بالظلم ، وهو يشير إلى قوله تعالى : ﴿ ﴿ (٢) .

أورد الدكتور ياسين الأيوبي سبع مقاطيع في فنون مختلفة ، ومما قاله في التصوير الشعرى عنده (٣) : « من هذه الصور البديعة قول صلاح الدين الصفدى يصف الأغصان المنتشية أمام أنسام الشمال الباردة ، فى ليلة مقمرة معتمة :

وَكَاثَمًا الْأَغْصَانُ يُثْنِيهَا الصَّبَا وَالبَدْرُ مِنْ خَلَلِ يَلُوحُ ، وَيُحَجَّبُ
حَسَنَاءُ قَدْ غَامَتْ ، وَأَرْحَتْ شَعْرَهَا فِي لُجَّةٍ ، وَالْمَوْجُ فِيهَا يَلْعَبُ

لعلنا لا نسوغ التشبيه للوهلة الأولى ، لكننا ، مع التأمل ، والموازنة نقع على تشبيه تمثيلي متعدد العناصر ، والوجوه تتداخل بلطف ، لا يلحظها إلا العارف بتحركات ، الضوء ، والظل وأمواج البحر .

(١) الروض الباسم ٧٤ / ب .

(٢) سورة طه ٢٠ : ١٠٦ .

(٣) آفاق الشعر العربى ٢١٠ .

فهناك الأغصان في مقابل القامة الأنثوية ، وأنسام الصُّبا في مقابل الموج المضطرب ؛ وهناك أيضا البريق المضيء ، ونصاعة الجسد البضّ ، والاحتجاب ، في مقابل الشعر الأسود ، ولا يخفى على القارئ التّابه ما يتضمّنه التشبيه هنا من قلب المقياس ، وجعل المشبه مشبّهًا به ، والعكس بالعكس ؛ فبدلا من تشبيه الحسناء وهى فى ليجّ الموج بالأغصان المتمايلة ، فى ليلة متعاقبة الضوء والعتم جعل الصورة معكوسة فأحدث وقعا حسنا ، وهو أسلوب دأب عليه شعراء العصر ؛ ليتخلّصوا من ربق التقليد .

وإذا تيسّر جمع شعر الصفدى فى ديوان ، فسيكون ، بلا شك ديوانا ضخما ، فقد أحصيت له فى نتيجة كتابه « جنان الجناس » ٧٣٢ بيت من شعره ، وهو واحد من خمسة كتب تمثّل النتيجة فيها أبياتا من شعره ، فى الفن البديعى الذى من أجله صنّف الكتاب ، فلو أحصينا له فى كل كتاب منها عددا مشابها ، وراعينا أنّه قد يتكرر بعض المقاطيع لقلنا إنّ له فيها نحو من ثلاثة آلاف بيت ، وإذا أضفنا إليها ما جاء فى كتبه الأخرى أصبح لدينا ديوانٌ كبيرٌ ، متعدد الفنون ، متنوع الأغراض ، معبّر عن مجتمعه وعصره أصدق تعبير ، ولكان موضوعا لدراسة فنيّة ، وأسلوبية طيبة ، وبخاصة إذا عرفنا أنّ الصفدى نظم فى كل الفنون المستحدثة ، وله الموشحات الرائعة .

فمن قوله فى فنّ الرّجل (١) :

عَنْ هَوَىٰ ذَا الظَّنْبِي الأَخْوَزِ	يَا فُوَادِي لَا تَحْوَلْ
قَالَ : كَيْفَ بُؤِ تُغْدُزُ	إِيَّاكَ أَنْ يُطْغِيكَ لَائِمٌ
وَعَلَيْهِ الحَالُ عُنْبِرُ ؟	مَا تَرَى كَافُوزَ حَدُوْ
دَغٍ يَجِي ، وَيُزَكَّبُ أَيْلَقُ	لَا تَخَفْ صَوْلَةَ عِدَاؤِ

وأما الموشحات فقد اشتمل كتابه « توشيح التوشيح » على ٢٨ موشحة له ، عارض فى بعضها كبار الوشّاحين ، وابتكر بعضها الآخر ، وعن أسلوبه ، وقتّه فى

الموشحات لاحظ أبير حبيب^(١) - محقق الكتاب - أنّ معارضات الصفدى أقل جودة من الموشحات التي يبتكرها ؛ فإنّ تقيده بوزن الموشح الذي يعارضه ، وبروحه ، وبألفاظه - أحيانا - جعله يقع تحت تأثير الناظم الأول ، ولكن إذا نظرنا إليها منفصلة نجدها عملا متقنا ، يُقَلُّ بهاؤها ، ورواؤها إذا قورنت بالموشح الأصلي ، ومع ذلك فإنّه استطاع ، فى بعض الأحيان أن يتفوّق على الأصل ، فمعارضته لموشح ابن زهر^(٢) :

قَلْبِي مِنْ الحُبِّ غَيْرُ صَاحِ صَاحِ
وَإِنْ لَحَائِي عَلَى المِلاحِ لَاحِ

ومعارضة الصفدى لها أولها :

يَا فَاضِحَ البَدْرِ فِي الكَمَالِ مَالِي
أَرَاكَ لَمَّا تَرَى أَنْتِ حَالِي حَالِي

ومنها :

سَاقِي مِنَ الثُّرُوكِ مَا سَقَانِي قَانِي
طَرَفِي إِذَا طَافَ بِالمُدَامِ دَامِي
وَطَرَفُهُ بِالْبَالِغِ المَرَامِ رَامِي
وَهُوَ عَلَى مَضْرِبِ الحُسَامِ سَامِي

وتفوّق الصفدى على ابن زهر فى هذا الموشح خاصة راجع إلى خبرته الطويلة فى التجنيس .

وأما الموشحات التى نظمها ابتكارا فتمثّل شاعريّة مبدعة ، « ويبدو عمله متقنا ، أنيقا ، يمتاز بالبساطة والذوق السليم^(٣) :

شَبَّهُوا المَحْبُوبَ بِالقَمَرِ

(١) مقدمة توشيع التوشيح ١٠ - ١١ .

(٢) أبو بكر ، محمد بن عبد الملك بن زهر ، الإيادى (٥٠٧ - ٥٩٥ هـ) طيب ، وشّاح . انظر : الأعلام ٦ / ٢٥٠ ، ومعجم المؤلفين ١٠ / ٢٥٧ .

(٣) مقدمة توشيع التوشيح ١١ - ١٢ .

وَبِرَوْضٍ يَبَايِعُ الرَّهْرِ
وَبِعُضُنٍ نَاعِمٍ نَضْرِ
وَ بِيْظَنِي سَاجِرِ الْحَدَقِ وَهُوَ عِنْدِي فَوْقَ مَا وَصَفُوا

شاع في العصور الوسطى أنواع من الشعر تعتمد على وسائل زخرفية ، وأشكال هندسية ، أو مشجرة ، واستعمله الشعراء في التأريخ ؛ لإظهار براعتهم في استعمال كلمات فيها حروف خاصة تتكرر في كل كلمة ، أو الكلمات التي تشتمل على حروف معجمة ، أو خالية من الإعجام ، أو تتبادل فيها الحروف الإعجام والتجرد منها ، وغير ذلك من الألعاب الشعرية التي أصبحت في ذلك العصر من مقاييس براعة الشاعر ، وحسن تصرفه ^(١) ، وكان للصفدي إسهام في هذا النوع من الشعر ، فقد روى بيتين من المواليا للصفى الحلبي ، وهما ^(٢) :

تَقُولُ بِسُكِّ مِئِي ، يَا شَقِيقَ الْبَدْرِ لِقَوْلِ ضِدِّكَ : عَنِّي بِالْحَنَّا وَالْعَدْرِ
وَكَانَ ظَنُّكَ أُنِّي ، يَا جَلِيلَ الْقَدْرِ يَكُونُ ذَلِكَ فَنِي ، عِنْدَ ضَيْقِ الصَّدْرِ

هذان البيتان يُقرأ النصف الأول من كل شطر منها ، فتصير بيتي شعر لهما وزن بذاته ، وإذا قُرئ البيتان المتولدان بالهجاء حرفا فحرفا ، خرج منهما بيتا موليا قائما الوزن .

قال الصفدي : « وهذا عمل صعب إلى الغاية ، ولا يتأتى إلا لدى القدرة ، والتسلط على النظم ، وقد أردت أن أعمل مثل ذلك ، فأعان الله تعالى ، وفتح علي ، فقلت :

عَلِمْتَ أَنَّكَ جِبِّي ، يَا رَشِيقَ الْقَدْرِ وَقُلْتُ : وَدُّكَ طِبِّي ، يَا شَرِيقَ الْحَدْرِ
فَرَأَعْتُ صَدُّكَ لُبِّي ، يَا سَعِيدَ الْجَدْرِ عَسَى يَزِدُّكَ رَبِّي ، يَا مَدِيدَ الصَّدْرِ

فشطر كل نصف أول يُقرأ ؛ فيكون قريضا ، وهو :

عَلِمْتَ أَنَّكَ جِبِّي وَقُلْتُ : وَدُّكَ طِبِّي

(١) راجع : مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ١٦٧ - ٢٢٥ .

(٢) أعيان العصر ٣ / ٨٠ - ٨١ .

فَرَاغَ صَدُّكَ لُبِّي عَسَى يَزُودَكَ رُبِّي
وإذا قرأت هذين البيتين بالهجاء حرفا فحرفا ، كان بيتي مواليا ، وهما :

عَيْنُ لَامٍ ، مِيمٌ تَاءٍ ، أَلْفٌ نُونٍ ، كَافٌ حَاءٍ ، بَاءٌ يَا
وَأُوْ قَافٍ ، لَامٌ تَاءٍ ، وَأُوْ ذَالٍ ، كَافٌ طَاءٍ ، بَاءٌ يَا
فَاءُ رَاءٍ ، أَلْفٌ عَيْنٍ ، صَادٌ ذَالٍ ، كَافٌ لَامٍ ، بَاءٌ يَا
عَيْنٌ سَيْنٍ ، أَلْفٌ يَاءٍ ، زَاءٌ ذَالٍ ، كَافٌ رَاءٍ ، بَاءٌ يَا

والمتمامل في الأبيات يحكم للصفدى بالإجادة ، والتفوق ، ونلاحظ أن وزن بيتي المواليا في الأصل من البسيط ، وهو الغالب فيه ، والمتفرع منهما من مجزوء البسيط ، وأما البيتان الأخيران فهما من الرمل المركب من خمس تفعيلات ، الأخيرة منها محذوفة .

فرض شعر الصفدى نفسه على نقاد عصره ، ورواة الأدب فيما بعد ، فأكثر كتب ابن حجة يقوم على اختيارات الصفدى ، وشعره ، وبخاصة في كتابيه : خزانة الأدب ، وكشف اللثام ، « وقد وردت أشعار الصفدى ، في كل ديوان ، تقريبا صدر بعد زمنه ؛ وقد استشهد به كثيرا في « حلبة الكميت » للنواجي ^(١) ، وفي معاهد التنصيص ، لعبد الرحيم العباسي ^(٢) .

كما توجد اختيارات من شعر الصفدى في كتاب : بستان العارفين ونزهة الناظرين » ، لأحمد بن حسن الشافعي (القرن الحادى عشر الهجرى) ^(٣) .

* * *

(١) محمد بن حسن بن على ، شمس الدين (٧٨٨ - ٨٥٩ هـ) أديب ، ناقد ، شاعر . انظر : الأعلام ٦ / ٨٨ ، ومعجم المؤلفين ٩ / ٢٠٣ .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١٤ / ٢٢٤ .
(٣) انظر : مجلة المجمع العلمى م ٢٠ / ٥٤ ، ومعجم المؤلفين ١ / ١٩٣ .